

كتب
ثقافية

دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث



بقلم عبد الله الكبيسي
تقديم صالح جورد



0156461



Bibliotheca Alexandrina

كتب ثقافيه

دراسات
في
الشعر الجزييري الحديث

بقلم
عبدالله ركيبي

تقديم

هذا الكتاب جزء من صميم تاريخ الثورة الجزائرية ، لان الادب في اية امة حية ، لا يستطيع ان ينفصل عن تاريخها . وقد اثبتت الجزائر انها في طليعة الامم الحية .

ونحن نخطيء ابلغ الخطأ حين نعتقد أن الثورة الجزائرية قد دامت سبع سنوات ونصف السنة ، وانتهت بتوقيع اتفاقية « ايفيان » .

فالثورة الجزائرية ليست وليدة هذا الجيل ، بل لقد بدأت منذ مائة وثلاثين سنة ، أعنى منذ وقوع حادث « لطمة المروحة » المشؤم ، الذي استغلته فرنسا لانزال قواتها في أرض الجزائر ، لتستعمرها بعد ذلك طوال هذه السنين .

واذا كنا نعى من الصفحات القديمة لهذه الثورة ، قصة كفاح الامير عبد القادر الجزائري ضد الغزاة الفرنسيين ، فالحقيقة التي لا يجوز ان تغيب عن وعينا ، أن الثورة الجزائرية لم تخدم منذ ذلك الحين .

ثم انها لم تنته بتوقيع اتفاقية ايفيان . بل لغل الاستقلال السياسي هو بداية الثورة الحقيقية ، كما كانت الثورة المصرية ، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بداية للثورة الحقيقية في مصر ، لا نهاية لها .

وقد حاول الفرنسيون ، على مدى العهد الذي استعمرها فيه أرض الجزائر العربية ، أن يخربوا القيم الروحية هناك ، فأقاموا بين سكان الجزائر وأخوانهم من سكان المغرب العربي ستارا حديديا ثم أقاموا بينهم وبين عرب المشرق ستارا حديديا لا حتى أصبحت جميع معالم الجزائر مجهولة لنا تماما .

وهكذا استطعنا ان نتصل بالادب الفرنسي ، من شعر ونثر وقصة ومسرحية ، ولكننا لم نستطع ان نتصل بالادب الجزائري نظرا للنطاق السميك الذي ضربه الاستعمار حوله ، ولم نشتم من أدب الجزائر طوال هذه الاجيال الا النفحات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتي أتاح لها الفرنسيون أن تعبر الحدود ، ليزعموا انها دليل على تبعية الجزائر للتراث الفرنسي ، وعلى تأثر العقول الجزائرية بالثقافة لفرنسية .

وحاولوا - الى جانب ذلك - أن يقتلوا اللغة العربية في الجزائر ، ويمنعوا تعليمها الا في أضيق نطاق بدائي ، لكي تموت هذه اللغة ، تقديرا منهم لاهمية اللغة بين مقومات القومية .

واذا كانوا قد نجحوا في اشاعة اللسان الفرنسي في أرض الجزائر ، فانه مما يدل على عمق عروبة أبناء الجزائر ، أن اللسان العربي لم يمت

فيهم أبدا ، وان القومية العربية ظلت فيهم حية نابضة تدعوهم الى مواصلة الكفاح الى يوم النصر .

ولهذا الكتاب الذي بين أيدينا أكثر من قيمة أدبية . ولكن أكبر هذه القيم ، انه يكسر الستار الحديدي الذي ضربه الفرنسيون على أدب الجزائر طوال هذه السنين ، حتى عشنا نقراً كل آداب العالم ، الا ادب الجزائر ، وحتى خيل اليها ذات يوم انه لم يعد في الجزائر شعر عربي بالمرّة ، من قلة ما ترامي اليها منه قلة تكاد تصل الى حد العدم .

ولهذا فان الاديب عبد الله ركيبي يفاجيء قراء الادب في المشرق العربي ، بكتابه هذا مفاجأة سارة .

واني لانصح نقاد الادب في المشرق العربي ان يتناولوا شعر هذا الكتاب برفق كبير ، ولا يقيموا دراساتهم له على الاسس النقدية المعروفة . ذلك لان سكان الجزائر ، قد حرّموا الثقافة العربية أجيالا . وفرضت عليهم ثقافة أجنبية ، فتلكأت السنة شعرائهم وتلعثمت راغمة ، ولم تلمع منهم الا قلة محدودة في أضيق نطاق .

ومع هذا فان شعراء الجزائر قد استطاعوا - وسط ظلام الاستعمار وبطشه - أن يتنفسوا وأن تخرج أنفاسهم حرة بالسخط على الاستعمار والاعراب عن الآمال القومية والدعوة الى الكفاح وان يرسموا - على مدى الأجيال - صورا صادقة للحياة القاسية التي عبرت بهم طوال هذه السنين .

اذن فلنقتصر في الحديث عما في هذا الكتاب من شعر على مهمة العرض دون النقد الى أن يشتد ساعد الجزائر المستقلة ، وتتحرر ثقافتها ، ويقف علمها العربي شامخا ، وينشأ الجيل القادم من بلابل الجزائر ، ملؤه شعراء موهوبون وادباء مأمولون ، ليرووا لنا القصة الكاملة في أبلغ لغة وأجمل روى .

صالح جودت

المصادر الهامة لهذه الدراسة

- ١ - مجموعة البصائر القديمة والحديثة .
 - ٢ - مجموعة مجلدات الشهاب .
 - ٣ - مجموعة وادي مزاب .
 - ٤ - مجلة الآداب .
 - ٥ - مجموعة جريدة الاسبوع .
 - ٦ - مجموعة جريدة المجاهد .
 - ٧ - شعراء الجزائر للزاهري طبع بتونس ١٩٢٧ ج ١ ، ٢ .
 - ٨ - الشاعر محمد العبد آل خليفة - تأليف أبي القاسم سعد الله .
- طبع بدار المعارف المصرية ١٩٦١

مقدمة

إذا كان الشرق العربي قد تعرف الى مدارس النقد الحديثة ،
وظهرت فيه اتجاهات مختلفة للقصة من الرمزية والكلاسيكية الى
الواقعية الحديثة ..

وإذا كان أيضا قد ظهر فيه .. دعاة للشعر الحر الحديث ، الى غير
ذلك من النظريات والقضايا الادبية ، فالمغرب العربي لم تقم فيه مثل
هذه المدارس ، ولم تظهر به هذه الاتجاهات « ولا قام منه من يدعو الى
مثل هذه المذاهب الجديدة .. التي كانت سببا في معارك نقدية طويلة
بين ادباء المشرق العربي ، معارك بين القديم والحديث . فهذه المعارك
الحادة طورا ، والهادئة تارة ، لم يعرفها ادباء المغرب العربي ، ولم
يحاولوا أن يخوضوها .. فقد اكتفوا - في معظم الاحيان - بدور
« المثلقي » الذي يأخذ دون أن يعطى ، ويتقبل الآراء دون أن يناقش ،
ودون أن يتخذ موقفا مستقلا يعبر به عن وجهة نظره . وهذا شيء
يلفت النظر ويدعو الى التساؤل : « لماذا لم تقم مثل هذه الحركات
والمذاهب بالمغرب العربي ؟ ولماذا لم يتخذ ادباء المغرب العربي موقفا
ايجابيا تجاه هذه المذاهب والقضايا الادبية الحديثة ؟ »

اعتقد أن سبب ذلك يرجع الى أن المغرب العربي عاش ظروفا
أكثر اضطرابا وقلقا من المشرق العربي نسبيا . فالمعارك الحربية ،
والاضطرابات السياسية الدائمة ... لم تترك له الوقت ليناقش أو
يفكر في مثل هذه القضايا الادبية . في حين أن المشرق العربي كان يتمتع
بنوع من الهدوء والاستقرار النسبي . وهذا السبب نفسه هو الذي
يفسر « تأخر الادب » في المغرب العربي . ولا يعنى هذا : أنه ليس هناك
أدب ، وإنما يعنى : أن هناك أدبا لم يبلغ المستوى الذي نرجوه له .

وقد حاولت في هذه الدراسة ، أن أكتشف بعض الجوانب في
الشعر الجزائري ، وأن أزيل ما علق ببعض الأذهان .. من أنه لا أدب
في الجزائر . وإنما فيها ثورة .. ومعركة .. وحرب . فحاولت أن
ألفت الانظار الى أن في الجزائر أدبا .

فيها شعر يجهله الكثيرون من أبناء العروبة .. يجهله حتى الادباء
الكبار الذين يتزعمون حركة الفكر والادب في العالم العربي . وحتى
« الى زمن قريب جدا » لم يعرفوا عن الادب في الجزائر سوى أشياء
قليلة ، بل : لم يعرفوا عنه شيئا .. إلا بعد أن ترجمت بعض آثار
كتابنا باللسان الفرنسي . وعندئذ فقط أدركوا أن في الجزائر أدبا حيا
جديدا .

عرفوا أن هناك قصاصين كبارا أمثال « محمد ديب » و « المعمرى »

« كاتب قيس » و « الحداد » وغيرهم من كتاب القصة .. الذين عرفهم العالم العربي .

أما الأدب ، أما الشعر الذي اتخذ لغة الضاد أداة للتعبير والبيان . فهم لا يعرفون عنه شيئا ، وإن عرفوا .. فمعرفة لا تتجاوز النظرة السطحية البسيطة . فليس هناك من قام بدراسة حول الأدب الجزائري .. وحاول أن ينفذ عنه غبار النسيان والاهمال . ولعل هذا الجهل والاهمال يتساوى فيهما غير الجزائريين مع الجزائريين أنفسهم .

وإذا كان هناك مبرر لغير أدباء الجزائر ، فليس هناك عذر أصلا بالنسبة للجزائريين - فنحن المسئولون - أولا وبالذات - عن تراثنا الفكري ، وعن هذا الجهل والاهمال اللذين غمرا أدبنا ، حتى جعلناه مغمورا .. لا يكاد يعرف عنه الناس شيئا ..

انه من واجبنا أن نجتمع هذا التراث ، ونبحث عنه .. في مصادره ، ونجمع أشتاته المتفرقة .

ولعل هذا من أكبر العوائق لدراسة الأدب الجزائري ، فهو - إلى الآن - لم يجمع في مصادر يمكن أن يرجع إليها القارئ .. أو الدارس .. دون أي عناء وجهد ، فالأدب الجزائري - والشعر بالخصوص - لا يزال مشتتا في ثنايا الصحف والمجلات والنشرات ، فلكي تعرف شيئا عن الشعر الجزائري ، فلا بد أن ترجع إلى هذه الصحف والمجلات التي قد تجدها ، وإن وجدتتها .. فقد لا تعثر فيها على ما يفى بالغرض . ذلك أن هذه الصحف والمجلات قد مضت عليها عشرات السنين ، ثم إنها لم تستمر في الصدور بالتوالي . إذ كانت تظهر آنا ، ثم تختفي آنا آخر ، فطالما تعرضت للحجز أو الإفلاس والمصادرة .

أنا لا أقول أنني تعبت في جمع هذه المتفرقات ، فالذي يعرف هذه الحقيقة ، يقدر الجهد المبذول .

وبهذه المناسبة .. يطيب لي أن أشكر الاستاذ المؤرخ الكبير عثمان الكعاكي مدير مكتبة العطارين التونسية الذي أتاح لي فرصة الاطلاع على بعض هذه المجموعات من الصحف والمجلات ، وأشكر كل الزملاء الذين ساعدوني في هذه الدراسة التي ما قصدت بها سوى أن أعرف بالشعر الجزائري بقدر الامكان .

وبعد: فقد حاولت - في هذه الدراسة للشعر الجزائري - أن أبين : كيف أنه كان تعبيرا صادقا عن حياة الشعب . وكيف سجل أطوار حياته . وكيف سار في طريق التطور . بجميع مراحلها التي مر بها .. أو مر بها الشعب الجزائري ، من انطوائية في أول الامر ، إلى دعوة وعمل ، ثم إلى يقظة وانتباه ، وأخيرا إلى ثورة وانطلاقة جديدة .

فالشعر الجزائري الحديث .. قد مر بمراحل أربع ، هي نفس المراحل التي مر بها الشعب ، فكان الشعر مرآة صقيلة .. عكست - بصدق وإخلاص - عواطف الشعب وانفعالاته : فهو شعر الشعب قبل أي شيء آخر .

لم يكن شعر طبقة أو هيئة خاصة أو حزب بعينه .. وانما كان لسانا صادقا . عبر عن آلام الشعب وطموحه واحلامه .

ومن ثمة : فقد خلا من تلك الارستقراطية البغيضة التي تبدو لدى البعض من الشعراء الذين كانوا يتفننون وينشدون أشعارهم لأشخاص معينين . ومن هنا قلت قصائد المناسبات في الشعر الجزائري ، وكاد ينحصر في موضوع واحد ، هو : شعر الوطنيات وشعر السياسة ، وقضايا الشعب .. وهذا ما يفسر روح السخط والتمرد والتشاؤم . في شعرنا الحديث .

لقد استمد شعرنا الحديث هذه الروح من حياة الحرمان والكبت اللذين عرفهما الشعب الجزائري طيلة الحكم الاجنبى . فان كنا نلاحظ فيه روحا تشاؤمية ، فانها من هذا النوع الذى يدعو الى الثورة والنضال ، لا التشاؤم السخيف الذى يدعو الى الانطواء والزهد في الحياة . معنى هذا : أنه ليس شعرا تشاؤميا - بل العكس هو الصحيح - فهو شعر تفاؤلى الى أبعد حد . وانما توجد فيه « نفمة تشاؤمية » محببة . تبعث في نفسك التطلع والاستفسار عن أسبابها ودواعيها ، كما تجعلك تحس بأن هناك انسانية تتألم وراء هذه النفمة ، وتصبو الى غد أفضل ، وحياة أكرم .

وهناك الى جانب هذا كله ميزة أخرى في الشعر الجزائري ، هي انه شعر حماسى . فالحماسة تطفئ عليه في كل مراحلها ، ما عدا المرحلة الاولى التى كان الشعر فيها - ان صبح أن نسميه شعرا - شعرا انطوائيا سلبيا . يدعو الى العزلة والفرار من الواقع ، والهروب الى الصوامع والمساجد . وفيما عدا هذه المرحلة ، نجد الشعر الجزائري .. كله حماسة ، وثورة وغليانا . ثورة على الجهل والفقر والمرض ، ثورة على الحياة الاجتماعية العقنة ، ثورة على الظلم والاضطهاد ، ثورة على أعداء الجزائر . فروح الثورة أصيلة في الشعب العربى في الجزائر . وهى ليست بنت اليوم فقط وانما هى تجرى فيه منذ الازل ، وسنلمسها من خلال هذه الدراسة .

وسنلمس الاسباب التى تعاونت على تغذيتها وتعميقها ، كما سنرى الفرق واضحا - من حيث الصياغة والاسلوب - لكل مرحلة من المراحل الاربع التى مر بها الشعر في الجزائر .

وانا في هذه الدراسة قد مزجت بين النقد والتاريخ والدرس ، ولم اعمد للتاريخ .. الا كعامل من العوامل التى توضح الفرق بين شعر مرحلة وأخرى لأن هدفى الاول والاخير - من هذه الدراسة - هو التعريف بالشعر الجزائري ، والكشف عن بعض ما فيه من طاقات تعبيرية ، وتجارب انسانية .

وأرجو أن اكون قد قدمت للقارئ العربى الكريم في هذه الدراسة صورة - ولو أنها موجزة - عن الشعر في الجزائر - حتى يعرف أن في الجزائر : ادبا عربيا ، كما أن فيه : ثورة عربية كبرى .

والله ولى التوفيق ..

القاهرة في أغسطس ١٩٦١

ع . ركيبي

الفصل الأول

شعر الانطواء

توطئة :

لا بد لمن يتصدى لدراسة الادب في الجزائر - والشعر منه بالخصوص - أن يتعرض للعوامل التي ساهمت في تطويره ، والاحداث التي مزت بالشعب الجزائري ، ليدرك مدى تعبير هذا الشعر عن روح الشعب ، ومدى مساهمته للواقع الجزائري . وهذا « بالطبع » يدعو الى أن نلقي نظرة مجملّة على حياة الفكر ، وسير الادب ، منذ الغزو الفرنسي .. حتى يومنا هذا .. لتكون دراستنا : أقرب الى الصدق ، والصق بالواقع .

والواقع : أن الشعر في الجزائر قد مرت عليه عهود وفترات تآرجح فيها بين اليأس والامل مرة وحاول أن يدفع بعجلة التطور الفكري الى الامام مرة أخرى .

والذي يلفت النظر هو أن هناك حلقة من حياة الشعر قد انقطعت .. أو كادت تنقطع ، وتبدأ هذه الفترة منذ بداية الغزو الفرنسي حتى أوائل هذا القرن .

ذلك أن آخر شعراء هذه الفترة كان الأمير البطل عبد القادر الذي سجل بعض الأحداث والوقائع التي عاشها الشعب الجزائري في حروبه الطاحنة ضد الغزو الفرنسي منذ سنة ١٨٣٠ حتى أسر الأمير . ولن نتعرض لشعر الأمير في هذه الفترة فقد درسه الكثيرون ، وعرفه معظم المثقفين ولا يجهله الا الذين لا ينتمون للثقافة والفكر .

وقد يكون هناك شعراء ، وقد يكون هناك شعر في هذه الفترة القائمة في حياة الجزائر السياسية والفكرية . ولكن الذي نعرفه : أن الشعب الجزائري .. في هذه المرحلة .. قد حيل بينه وبين الثقافة العربية ، اذ حاول الاستعمار الفرنسي - بكل ما يملك من قوة وسيطرة واغراء - أن يضرب حجابا صفيقا .. بين الجزائر وبين العربية والعروبة بغرض أن يمحو الجزائر من سجل التاريخ العربي مهما كان الثمن ..

فبالاضافة الى خنق الحريات ، وكم الافواه الوطنية ، والضرب على ايدي الذين تنزع انفسهم للماضي ، أقول : بالاضافة الى كل هذا فتحت المدارس الفرنسية ليفرنس الجزائر ، وسن القوانين الجائرة التي تجعل الجزائر جزءا من فرنسا . وسلك سياسة البطش والدمار

تارة ، وسياسة الاغراء والوعد تارة اخرى . فكان من نتيجة كل هذا :
خمود في القريحة وركود في الفكر ، وهمود في الارواح .

وبالرغم من ان الشعر في هذه الفترة .. قد فتر ، وخمسدت
روحه فان روح الشعب لم تخمد .. ولم تفتّر ، بل تفجرت ، وقامت
ثورات شتى في مختلف جهات الجزائر .

فتورات المقراني ، وأولاد سيدي الشيخ .. وغيرهما من الثورات
التي وقعت في هذه الفترة .. انما كانت تعبيرا عن روح السخط والتبرم
والكراهية للنظام الاستعماري المستبد ، ولأساليبه الوحشية .. التي
حاول أن يطمس بها روح النضال في الشعب الجزائري .

وكرر فعل لهذه السياسة اتجه الشعر - كما يبدو من بعض
النماذج - الى العزلة ، والانطواء على الذات ، واجترار الأحزان .. في
صمت وسكون ، فظهرت المدائح النبوية - تماما - كما ظهرت في عصر
المماليك .. يوم أن هبطت الثقافة العربية الى الحضيض ، ولجأ
الشعراء الى الصوامع ، ينشدون السلو . والهدوء ، ويترقبون رحمة
الله : ويظنون .. بذلك .. أنهم قد أدوا ما عليهم من واجبات : لانهم
فضلوا حياة الآخرة على هذه الحياة الفانية .

هذا ما وقع بالجزائر في هذه الفترة حيث اتجه الشعراء الى
التقرب الى الله ، وإلى مدح الاولياء الصالحين ، والتغنى بالتقوى .. ونعيم
الآخرة .

ولا داعي للاستشهاد في هذا الموضوع ، لانه معروف للجميع ،
ولأن الشعب العربي .. تكاد تتشابه ظروفه في هذا المعنى الى حد كبير .

وقد نلوم « نحن أبناء هذا الجيل » هؤلاء الناس الذين فروا الى
الصوامع والمساجد ، وتركوا الشعب يناضل وحده ويقاوم ، وقد
نحملهم مسئولية ما حدث لنا في هذه الفترة ، ولنا الحق في هذا كله -
ولكن لومنا هذا .. لا يدعونا الى أن نجردهم من بعض المزايا ، وأولها
أنهم حافظوا على العربية .. ولو بهذا القدر الضئيل .

قلنا : ان هذه الفترة قد امتدت في الجزائر حتى مطلع هذا القرن .
ومنذ بداية هذا القرن .. حتى الحرب العالمية الأولى .. نلاحظ
حركة وتطورا بسيطا في الشعر الجزائري . فهو ، وإن لم يطر طفرة
كبيرة .. قد انفلت من الصومعة والمسجد لينطوي على نفسه . وهذا
ما جعلنا نعنون للشعر .. في هذه المرحلة .. بشعر الانطواء .

الانطواء على الذات

قلنا ان الشعر في هذه الفترة ، غادر المسجد والجامع ، وابتعد -
الى حد ما - عن الأضرحة والاولياء .. ليفلق على نفسه الباب ، وينظر
الى الحياة من زاوية خاصة ، هي : زاوية الذات المحرومة .. والنفس
المكبوتة . فقد اتجه الشعراء - في هذه الفترة الى انفسهم يبحثون
عنها ، كما اتجهوا الى الزمان والدهر يحملونه ما يقاسون في هذه الحياة
من شقاء وعذاب . وما يلاقونه من صدود وحرمان .

قالشاعر الأمين العمودي في هذه المرحلة - كغيره - يرى : ان
الدهر . . . هو سبب بلائه وعذابه ، انه هو الذي يقف في طريقه ويسد
في وجهه أبواب الأمل .

لماذا ؟ ؟

لان نفسه طموحة تصبو الى العلاء . . وهو يفتخر بأنه : اذا
كتب . . . فكان السماء قد أمطرت ، اما اذا حدث . . فقد تفجر البركان
واذا نظم . . . فانه يأتي قراءه بما لم يات به حسان قبله .

نفسى تريد العلاء والدهر يعكسها
ان الزمان سطا عنى بسطوته
بالقهر والزجر . . ان الدهر ظلام
كما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام
وهو القاتل :

فاذا كتبت يقال أمطرت السماء
واذا نظمت أتيت ورأى بها
او فहत . . قيل تفجر البركان
لم يأتهم قبلي به حسان

واذا كان العمودي ساخطا على الزمان ، كافرا بما ضربه عليه من
حجاب ، ومتبرما بهذا الدهر الذي يقف سدا في وجهه ، فهناك الشاعر
المولود بن الموهوب ، وهو وان شارك العمودي في السخط والتبرم ،
الا أنه يدعو الى الصبر والتأني ، لان الزمان الجائر سيزول وستمر
أيامه ، وستتبدل الأحوال ، فان بعد الحزن السرور .

اذا جار الزمان عليك حيناً
ولا تنظر لحادثة آلت
فصبراً . . فالزمان له سرور
فان الحزن يتبعه السرور

واذا كنا قد رأينا : ان الشعر في هذه الفترة قد اتجه هذا الاتجاه
السلبى القاتم ، الذى لم يقدم حلولا ، ولم يشارك الشعب في مأساته ،
ويحاول أن يخفف من الازهاق الذى يعانى منه الشيء الكثير ، فهناك
من حاول أن يخرج به الى شيء من الشمول . . . ولكن في غير افصاح ،
بل في صوت مبحوح ، ونغمة فائرة ، ونبرة خجلى . فالذى خرج عن
ذاته فى الغالب يتجه نحو الدين ، والقلب ، والضمير
الدينى .

والمعروف أنه فى هذه الفترة : والى ما بعدها حتى الثورة المباركة
الحالية : كانت : الزوايا والتكايا وأربابهم ، . . . قد شوهوا الدين . . .
والبسوه لباسا زريا ، واستغلوه لأغراضهم الخاصة . وطبقا لسياسة
استعمارية قذرة ، قد انتشرت الزوايا بشكل فظيع فى الجزائر ، فكل
قرية لها ولى صالح ، وكل مدينة لها أولياء صالحون . وكان الاستعمار
الفرنسى يشهد من أزر دعاة هذه الدعوة التى الصقت بالاسلام التهم
والأباطيل . . . وهو براء منها ، وسنتحدث عن هذا فى محله ان شاء
الله .

قلنا : ان الشعر قد حاول أن يخرج من قوقعته الضيقة . ليتحدث
فى أشياء جوهرية . وهذا الشاعر المولود السابق . قد حاول أن يمزق
السكون ليخوض فى موضوع هام ، موضوع له جلاله وحرمة عند

الشعب الجزائري ، لأنه هو الملاذ الوحيد الذي بقي له ، والذي لم يستطع
الاستعمار أن يقتلعه من نفسه وقلبه . . . رغم انه قضى على معاله
ذلك : هو الدين . .

يقول الشاعر : -

ألا يا قوم ما الاسلام هذا ودين الله رب العالمينا
أتى الاسلام يأمونا بعلم وسعى . . في المنافع ما حيينا
وجمع بين دنيانا وأخرى تدبر قول خير المرسلينا

والحقيقة : ان الشعر . . . بعد أن كسر ومزق حدود الذات
الضيقة ليتحدث في مسائل جوهرية . . . لم يعمد الى الأسلوب الأدبي
الذي يحرك النفس ويغذي العاطفة . . . انما عمد الى أسلوب الوعظ
والارشاد ، وهو الأسلوب الذي طغى على شعرائنا في أغلب الأحيان .

ولعلك تعجب معي « أيها القارئ الكريم » عندما ترى الشعر
في هذه الفترة قد أخذ يلتفت الى المجتمع ليساهم في حل مشاكله . .
فيتحدث عن المرأة . . . فيرثي لحالها مرة ، ويحملها مسئولية ما يحدث
للناس من مشاكل مرة أخرى ، فهي عند الشاعر صالح خباش :
انسانة تستحق العطف والرثاء ، فقد تركوها بين عباءة وشقاء . . .
مهمومة ، مفلولة الأيدي لا تستطيع أن تتحرك . . . ولا أن تشارك في
الحياة لأنها مسجونة وراء الحيطان ، محرومة من كل شيء .

تركوك بين عباءة وشقاء مكثوبة في الليلة الليلا
مفلولة الأيدي بأسوا بقعة محفوفة بكتائب الارزاء
مسجونة محرومة مزجورة ملفوفة بملاء سوداء

وانه لمن الانصاف : أن يسجل لهذا الشاعر هذا السبق في هذا
الميدان - ميدان المرأة - حيث كانت المرأة العربية عامة ، والجزائرية
خاصة ، تعيش في عزلة عن المجتمع . . . حتى مطلع النهضة الحديثة ،
فنحن نسجل له هذا السبق ، بالرغم من أسلوبه المهلهل ، وبالرغم من
هذه (المكثوبة) !! ولعله يقصد المكروبة . . . أو الكثيبة .

أما العمودي . . . فهو على نقيض خباش ، إذ يرى ان المرأة . .
هي روح كل بلية ، وانها فتاكة . . . حتى برب التاج والاكيل ، وانها
همازة ، لمازة ، سريعة القلب والتحول ، فهي لا تثبت على حال أبدا .
فهي منبع الفتن والشور :

هي روح كل بلية فتاكة حتى برب التساسج والاكيل
همازة ، لمازة ، صناعة للترهات ، سريعة التحويل
هي منبع الفتن التي عنها نهى ما جاء في الأحكام والتنزيل

فهذه النظرة للمرأة نظرة جاهلية ، تعبر عن رواسب من الماضي . .
ما زالت . . عالقة ببعض العقول من أبناء العرب . فلا زالوا ينظرون
اليها على انها . . مصيبة لا بد منها ، واتها مخلوق شرير لا بد من سسد
الباب في وجهه ، ولا بد من سجنه في المنزل حتى نأمن شره .

وعلى أية حال فقد رأينا من الشعراء من حاول أن يخوض في
وانما المهم أن تتكلم وتظهر رأيك ولو كان خاطئا ، ولو ان الشعر في هذه
الفترة . . . لم يخرج الى أفاق رحبة واسعة ليشارك الشعب همومه
وألامه ، فلم يتحدث في الحياة السياسية بالمرّة ، ولا صالح القضايا
مواضع حيوية هامة ، ويعطيها وجهة نظره ، فليس المهم أن تسكت ،
الجوهرية . . . الا بلمحات سريعة بتراء كما شاهدنا في الأمثلة السابقة .

بيد أنه لا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن الزاهري . . صاحب شعراء
الجزائر ، قد عالج بعض هذه القضايا الوطنية ، ولكن في غير شمول
ووعي ، ولا بد من ان نسجل له شيئا في هذا الميدان وقد أعجبت
بقصيدة له . . قالها في طفلة جزائرية لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها
الغض ، عندما اختطفها طبيب فرنسي يحمل درجة الدكتوراه في الطب
اختطفها من (سانتوجين) بالجزائر العاصمة - فاغتصبها . وهي
قصيدة طويلة ، تصور هذه الحادثة الوحشية ، التي تظهر بجلاء . . .
اخلاق الفرنسيين جميعا - حتى المثقفين منهم أيضا - وكيف كانوا
ينظرون الى الشعب الجزائري . . ولن أنقلها كلها ، بل انقل منها هذه
المقطوعة . . هذه البداية التي تقطر حزنا وألما .

يقول الشاعر :

شد ما تلقاه من وقد الضلوع طفلة في مستهل العمر
سامها فظ من العليج خليع شقوة الأسر وسوء المنكر

ولعلك تلاحظ هذه النغمة الجسدية ، وهذا التحرر من الشعر
التقليدي الذي يبدو غريبا من شاعر عاش في بيئة تقديس الماضي ولا
ترضى عنه بديلا . وأنا أحث القاري الكريم ، أن يرجع الى هذه
القصيدة ، التي تعتبر : انموذجا ، فريدا ، حيا . . في هذا الموضوع الذي
مثل مأساة انسانية فريدة . انها مأساة الجزائر كلها التي نكبت بأحقر
استعمار ، وأقذر حكم .

ان هذه القصة : تسجل العار الأبدى الذي لطخ سمعة فرنسا ،
وسمعة الثورة الفرنسية . . التي قامت لتحرر الانسان ، كما تدعى . .
فرنسا .

والملاحظ في هذه الفترة : ان الشعر . . قد خلا تماما من الأغراض
الشعرية الأخرى . كالغزل ، والفخر ، والمسدح ، والرثاء . . الى آخر
ما تعود الشعراء أن يتعرضوا له في أشعارهم . وسنبين أسباب هذا في
باقي دراستنا للشعر الجزائري في المراحل القادمة .

وخلاصة الأمر : ان الشعر في هذه المرحلة ، هو : وان كان تعبيراً كاملاً عن هذه الفترة الحالكة من حياة الجزائر ، الا أنه ... في تعبيره هذا ... كان قاصراً عن أن يصورها أدق تصوير ، ويعبر عنها أجمل تعبير . فقد رأينا من بعض النماذج السابقة ، انه شعر مهزوز في شكله ومضمونه . لاهياة فيه ولا ماء . . جاف كجفاف حياة الناس يومئذ . أسلوبه سخييف . . ركافة في التعبير ، وخلخلة في النسيج ، وخود في الروح ، وفتور في العاطفة : ودع العروض . فهذا آخر شيء يمكن أن يهتم به الشاعر في هذه المرحلة ، لأن همه أن يقول شعراً ، ولو على حساب الخليل . . وبحوره . . وأوزانه .

والواقع : أن غرضنا الأول من هذه الدراسة ، أن نعطي صورة ولو كانت موجزة . . . عن الشعر في الجزائر لنذكر الذين يجهلون حياة الفكر في الجزائر ، والذين لم يهتموا بالجزائر . . . الا من حيث كونها جزائر الثورة .

وقد قصدنا في دراستنا هذه أن الجزائر كانت قبل الثورة متمثلة في تاريخها المجيد وفي ثقافتها العربية رغم جهل الكثيرين بهذه الثقافة .

وليس العيب على الجزائر ، وانما العيب على من لم يهتم بها . . وبحياتها ، وسنرى في القريب نماذج من الشعر الذي عبر عن نبضات الشعب الجزائري بصدق وإخلاص ، وسجل آمال هذا الشعب الذي ضرب الرقم القياسي في البطولة والنضال . حتى تربط الحاضر بالماضي ، وحتى نفهم أن الحاضر وليد الماضي ، وان المستقبل وليد الحاضر . . . ونعرف أن الجزائر : كانت دائماً تحس بعسرويتها وتحن الى الماضي المشترك ، وتهفو الى المستقبل المشرق الباسم . . . الذي يلم شعث الأمة العربية ، ويرد لها ما فقدته . . من عز ومجد وحضارة .

وسنرى في دراستنا المقبلة تطور الشعر في الجزائر ، ثم تطوّر الفكر والتفكير لدى الشعب الجزائري ، وما مدى تعبير هذا الشعر عن عواطف وانفعالات الشعب ، وبالتالي : هل كان الشعر مرآة صادقة تعكس أحلام وآمال الشعب ، أم كان نوعاً من البهرجة والتهريج ؟ ثم أخيراً : هل كان الشعر عاملاً ايجابياً أم سلبياً في حياة الشعب .

كل هذا سنجد الجواب عنه في باقى دراستنا ان شاء الله .

الفصل الثاني

شعر الدعوة

(١) دعوة الى النهضة

ليس من شك في أن الشعب الجزائري قد عاش أحداثا ضخمة في فترة ما بين الحربين الأولى والأخيرة ، ففي هذه المرحلة جدت أحداث وظهرت أفكار جديدة نتيجة للحرب .

فقد شاركت الجزائر في هذه الحرب . . . مرغمة ، وقاتل الجزائريون . . . جنبا الى جنب . . . مع الفرنسيين ، وظنوا أنهم بذلك قد دافعوا عن الحرية والديمقراطية ، وبالتالي سيرد لهم شيء من هذه الحرية والديمقراطية . ولكن فرنسا قلبت ظهر المجن للجزائر وأخذت تناور وتساور ، وتبذل الوعود تلو الوعود . . . ولا شيء بعد ذلك .

ووجد الشعب الجزائري أنه لا بد من عمل جدي آخر غير الأمل في عدل فرنسا . فأخذ يتلفت هنا وهناك ويستنجد ويفكر ، وأخذ يبحث عن نفسه وسط هذه الدوامة التي يعيش فيها من جهل ، وفقر ، وتأخر . . . في شتى الميادين .

وكان لا بد من ظهور حركات تعبر عن هذه التحركات الجديدة التي أخذت تهز الشعب هزاه وتبعث فيه روحا وأملا جديدين .

في هذه الفترة بالذات ظهرت معظم الحركات الوطنية والاصلاحية وانتشرت الدعوات ، وتعالّت الأصوات من كل فج . . . تنادى بالنهوض ، كما تنادى بالتحرك والتحرر من هذه القيود الكثيرة التي رزح تحتها الشعب أجيالا طويلة . فظهرت حركة « نجم أفريقيا » بزعامة الحاج علي عبد القادر في سنة ١٩٣٥ كما تأسست سنة ١٩٣٥ « جمعية النواب » تحت قيادة فرحات عباس وابن جلول . وبرزت الى الوجود عام ١٩٣٦ منظمة اصلاحية بزعامة الامام عبد الحميد بن باديس . باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وقد قامت هذه الحركة في الواقع . . . بعد الحرب الأولى مباشرة ، وبدأت تدعو الى تحرير الدين من الوهم والخرافات التي مسخته حتى أصبح شبيحا بلا روح .

وفي سنة ١٩٣٧ تأسس « حزب الشعب الجزائري » ، بزعامة مصالي الحاج الذي أصبح فيما بعد يحمل عنوان « انتصار الحريات الديمقراطية » . وفي سنة ١٩٤٣ وقع ٢٨ نائبا بيانا برياسة فرحات

عباس ، وفي سنة ١٩٤٤ تم تأسيس « احباب البيان والحرية » ،
وقد جمعت هذه المنظمة كافة الحركات الوطنية بدون استثناء وقد
انقسمت هذه الحركة بعد ٨ مايو ١٩٤٥ .

ونحن لانريد ان نتتبع هذه الحركات ونستقصي اخبارها
واتجاهاتها . وانما قصدنا من كل هذا ان نبين فقط تأثير هذه الأفكار
والحركات والاتجاهات على الشعور بالخصوص . لنعرف مدى تعبير
هذا الشعور . . . عن هذه الفترة ، ولندرك دور الشعور في هذه المرحلة
من حياة الجزائر .

ولا يفوتنا هنا ان ننبه الى ان هذه الفترة قد حفلت بحركة ونشاط
ثقافي هائل بالنسبة الى الظروف العصيبة التي عاشها الشعب اذ ذاك .
ففي هذه المرحلة ، ظهرت صحف شتى بالعربية والفرنسية ، وانك
لتعجب عندما تعرف ان صحف « الشهاب » و « البصائر » و « وادي
مزاب » و « المساواة » و « الشريعة » ، وغيرها من المجلات الاسبوعية قد
ظهرت في هذه الحقبة .

حقا اننا لنعجب كيف قامت هذه الصحف في فترة كان الجهل قد
ضرب أطنابه فيها وكان الاستعمار يحاول ان يقضى على العربية بشتى
الطرق الظاهرة والخفية .

وهذه الصحف - في الواقع - هي المصدر الأساسي لمعرفة النشاط
الثقافي والفكري في هذه المرحلة .

ان الأصوات كانت قد تعالت ، « كما قلنا » في هذه الفترة . . .
تنادي بالاصلاح مرة ، وبالمساواة والنهضة تارات أخرى ، وكثرت
الدعوات والآراء .

نادى البعض : بالحرية صراحة ، ونادى البعض الآخر : بحقوق
سياسية تحترم الحريات الفردية ، والبعض نادى بالاندماج . وهكذا
كثرت الفرق والأحزاب ، وتبع ذلك بلبلة في الأفكار .

وجاء الشعور يعبر عن كل هذا ، جاء ليكون صدى معبرا عن كل
هذا . . . دون ان يرتبط باتجاه معين ، ودون ان يكون بوقا لهذا أو ذاك
انما جاء ليكون مسجلا أميناً لأمانى الشعب وآلامه ، وليقول كلمته ، وكلمة
الشعب ، لا يناقح هذا ، ولا يجامل الآخر .

واعتقد : ان عدم ارتباط الشعراء بقيود الحزبية ، والغسل
الاتجاهات . . . قد أفاد هذه الحركات جميعا ، وبالتالي : أفاد الوطن بالبعد
به ، عن خصومات ومهاترات لا تفيد الا العدو المستعمر .

وبالرغم مما يبدو من ان الشعور كان يساير حركة الاصلاح ، الا انه
لم يكن عبدا لها هي الأخرى ، والدليل على ذلك : ان هناك شعراء لم
يرتبطوا بفكرة الاصلاح ، ومع هذا فهم يدعون اليها ، ويؤازرونها ،
ويدافعون عن مبادئها . وفكرة الاصلاح هذه : هي التي نادى بها « الامام

يناديس ، كما أسلفنا ، والتي تدعو الى نبذ الأوهام والخرافات التي ليست من الدين في شيء ، وتحارب أهل الزوايا والتكايا المعروفين بتبعييتهم للاستعمار ، والسير في ركابه ، وخدمة أغراضه .

ومن هنا رأينا أن نعنون للشعر في هذه الفترة ، بأنه : (شعر الدعوة) دعوة الى نبذ الخلافات والحزابات ودعوة الى التكتل والوحدة ودعوة الى التعليم والثقافة ، ودعوة الى التحرر . . تحرير العقول من الوهم والجمود .

ونحن - عندما نقدم نماذج للشعر في هذه الفترة - لا نقصد سوى أن نضرب أمثلة فقط ، ونعطي فكرة للقارئ حتى يطلع على بعض المظاهر ، ويعرف : كيف كان الشعب العربي في الجزائر يناضل في صمت وسكون دون أن يسمع به . . حتى أخوته . . وأشقائه . . وليعرف أن الشعب الجزائري لم يسكن ، ولم تفتر همته ، ولم يستكن . . في أي وقت من الأوقات .

ثم اننا في هذه الدراسة - منذ البداية حتى النهاية - لا نأتي بعينات لكل الشعراء . . ولا نقصد التعريف بالشعراء ، وانما قصدنا الأول والأخير . . . هو التعريف بالشعر الجزائري أولا ثم عن مدى تعبيره عن حياة الشعب . . . ومسايرته للواقع الجزائري ، ولهذا فقد يكون هناك شعراء مجيدون لم نسجل لهم أشعارا ، ولم نستشهد ببعض مقطوعاتهم . . . مع اكبارنا وتقديرنا لانتاجهم .

ولعل المسئولية لا تقع علينا ، فهناك « من الشعراء » من لم نعثر له على قصائد في المراجع التي رجعنا اليها . كما أن بعدنا عن الوطن . . حال بيننا وبين شعرهم ، مع العلم بأن هناك من له ديوان كامل . . ولكن لم يطبع بعد ، لأسباب معروفة واضحة ، أولها : أن الطبع في الجزائر تعترضه عقبات لا يجهلها أحد . ثم أن البعض منهم ربما ما زال في السجون والمعتقلات ، وعسى أن تتاح لنا الفرصة . . . لنتمم النقص الذي لم نتممه ، وانما اضطررنا اليه اضطرارا .

معظم الشعر - في هذه الفترة - كان دعوة ملحة صريحة الى النهضة والأخذ بأسباب الرقي والتقدم . . فالشاعر « محمد العيد » يستصرخ فتية الوطن وأبناء الضاد في الجزائر ، ويدعوهم الى أن يحكموا الرأي .

لماذا ؟ . . .

لأن جيرانهم قد قطعوا أشواطا كبيرة في طريق العلم والاختراع . . ووقفوا هم يترددون بين وهم ووهن ، يقاسون شتى أنواع الأذى والتجني ، وقد سكنوا الى الذل والاحتقار :

يا حماة البلاد يا فتية الضاد	تري هل لكم من الرأي مغن
سار جيرانكم مع العصر شوطا	ووقفتم ما بين وهم ووهن
تحت شتى القوى تقاسون منها	ما تقاسون من أذى وتجن
بين منكم مهابة وانتصاف	أم سكنتم الى احتقار وغبن ؟

والشاعر يوبخ الشباب الذي يدعى أن هذا الهوان الذي يعيشون فيه . . . إنما كان السبب فيه الاجداد . فالذي يسيء الظن بالاجداد أجدر به أن يحتقر . فهناك شواهد بارزات على ما كان للاجداد والآباء من عز وسلطان . أسأل « تلمسان » و « بجاية » و « تبهرت » و « القلمة » تخبرك بأن الفن قد ازدهر بها . . . يوم أن كانت محط أنظار الشرق والغرب ، ومعهدا يؤمه الناس من كل فجٍ وصوب .

في تلمسان ، في بجاية ، في تيهـ	رت ، في القلعة . . ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغرب	مسابيا كمعهد وكحصن
وعليها من الملوك ذوى العزة	والباساس كل مهران فطن
دعموا البر ، دعموا البحر . . بالاعلام	من منشآت مسدن وسفن

ويستمر الشاعر في ضرب الأمثلة من ماضى الآباء والاجداد ، معددا مآثرهم الخالدة ، ومبيناً أمجادهم التى مازالت آثارها ماثلة للعيان .

أما الشاعر رمضان حمود ، فقد دعا الشعب الى أن يسير للسلام والرقى لانه موطن الامجاد ، ومقر للكرام الفضلاء ، ويدعوه الى أن يرفع رأسه عاليا ، ويزاحم من علا نجمه ، ويترك الخوف للجبنساء ، ويدعوه الى أن يطالب بحقه وبما فيه خير لبنية النبلاء وهو اذ يدعوه الى كل هذا . . . إنما يرسم له طريق الدعوة . ويوضح له أساليب العمل ، فهو لا يريد منه أن يطلب حقه بذل وهوان ، أو بالحرب والدمار والدماء بل بسلم وهدوء وهدى ، وبعلم ونشاط وذكاء :

موطن الامجاد . . سيرا للسلام	عشت حرا يا مقر الفضلاء
ارفع الرأس وزاحم من علا	وأترك الخوف لقلب الجبنساء
وانشد الحق وطالب ما ترى	فيه خيرا لبنيك النبلاء
لا بذل وهوان وصغار	لا بحرب ودمار ودهاء
بل بسلم وهدوء وهدى	وبعلم ونشاط وذكاء

وهكذا يبدو لنا من هذه المقطوعة : ان الشعب الجزائري . . لم يكن فى يوم ما من عشاق الدم ، ولا من تجار الحروب . بل كان . . . فى كل فرصة تسنح له . . . يطالب بحقه بالطرق المشروعة ولم يعمد الى الحرب . . الا عندما استنفد كل الحيل . وطرق كل الابواب . . فأغلقت فى وجهه . ولم يركب المراكب الصعبة الا بعد أن حيل بينه وبين حقه فى الحياة الكريمة ، والعيش الرغيد .

ويستمر الشاعر يضرب الأمثلة ، ويوجه الأنظار الى الغرب . . . الذى بنى القصور الشامخة ، وملك الدنيا ، واستولى على البحر والبر والهواء .

انظروا الغرب بعلم ما بنى	من قصور شامخات للسلام
ملك الدنيا وما يتبعها	من تراب ومياه وهواء

وقد كان شعراء العرب تقريبا ، في هذه الفترة ، يضربون على هذه النغمة ، ويحاولون أن يوجهوا الافكار نحو العلم الذي أخذ به الغرب ففاز ... وأتى بالأعاجيب ، في حين أن الشرق سادر في أوهامه وخرافاته وأحلامه . وتري هذا ... بالخصوص ... في شعر الرعيل الأول من شعرائنا ، مثل : الرصافي ، وحافظ ، وغيرهما ... من شعراء العرب الذين عاشوا في أحلك فترة مرت بالشعب العربي .

وفي مقطوعة أخرى للشاعر نفسه ، نراه يصرخ في وجه أبناء جلدته ، فيدعوهم الى النهوض . ويتعجب : كيف يرضون بحياة الهوان ، التي هي حياة البقر ، ويعيشون في حسرة وألم . وينسبون ذلك الشقاء للفضاء والقدر . ويؤنبهم على حياتهم التافهة التي يسرون بها ، في حين أن شعبهم قد تردى في مهاوى الحفر . ثم يلتفت الى الشرق ... الى الوطن الأكبر . . . هذا الوطن الذي - هو الآخر - يعيش في تفاهات مثل الجزائر تماما ، ويهدده بالوعيد ... اذا نبذ الدين وكفر بالمثل :

نهوضنا نهوضا بنى جلدتي	الام نعيش بطي الخبـسر ؟
الام ؟ وفي الأسر ارواحنا	ونحيا هوانا حينا البقر
انمسي ونصبح في حسرة	ونسب ذاك الشقا لـلـقـدر ؟
اراكم تسرون بالتفاهات	وشعبكم في مهاوى الحفر
أرى الشرق يسعي الى حتفه	اذا نبذ الدين ثم كفر

وكان الشاعر لم ير من أبناء جلدته ، ولا من أشقائه ، من يستمع الى ندائه ، ويصغي الى صوته المبحوح ، فيصرخ صرخة مدوية يائسة ، يطلب فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا ، أو موتا كريما يسر :

فيارب عجل بفتح مبين والا بموت كزيم يسر

(٢) دعوة للنضال

قد يعجب الدارس للشعر الجزائري - في هذه الفترة - عندما يعثر على شعراء يدعون دعوة صريحة الى الجهاد والنضال . وينادون بالكفاح من أجل الوطن .

ذلك : ان الشعر كان في معظمه أحيسانه ، يدعو الى النهوض والتحرر ... ولكن في هدوء ، واتزان ، وفي غير ما عنف أو قوة . ولعل هذا « كما أسلفنا » مرجعه الى أن الشعر لم يتقيد بأحزاب واتجاهات خاصة ، وانما كان - في غالب الوقت مرآة للشعب لا لحزب أو هيئة سياسية . ومن هنا كان الشعر الجزائري مرآة صافية عكست « بحق » انفعالات الشعب وآراءه في مجريات الأحداث التي عاشها . . . واصل بناها .

وقد يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من سوء الحال الذي عليه الشعب ، فيعدد النكبات والمضائب التي يتخبط فيها هذا الشعب :

ثم يختتمها بالدعوة الى النضال ، والى الاستشهاد ، كما فعل « أمير الشعراء محمد العبد » . الذى تألم كثيرا من هذه الجوانح والرزايا ، وضاق بهذه الأغلال التى حزت فى ساعد الشعب ، وضاق ذرعا بدسائس الاستعمار ومكائده :

أصابتنا الجوانح والرزايا	واعوزت المرافق والرفود
حقت أعناقنا الأغلال ظلما	وحزت فى سسواعدنا القيود
وأعلننا المظالم والشكايا	فاخفتها الدسائس والكيود
وانقضت الروس لنا هزوا	وانكارا وصعرت الخسود:

بعد هذه المظالم وبعد هذا الشقاء ماذابقى للشعب أن يفعل ،
بقى له طريق واحد لامناص منه ولا هروب ،بقى طريق النضال ليحقق
نصرا وعزا ، أو موتا كريما :

فقم يا بن البلاد اليوم وانهض	بلا مهمل فقد طال الرقود
وخض يا بن الجزائر فى المنايا	تظلك البنسود أو اللحدود

وقد لبي الشعب هذا النداء ، وقام يمسح العار .. ليعيش
عزيزا مكرما ، أو يموت موت الشرفاء الأبطال .

أما الشاعر رمضان حمود ، فهو يدعو كذلك الى الجهاد ، فى غير ما
تلثم أو تستر أو تقية .. مثل البعض من الشعراء الذين كانوا يهمسون
بهذا همسا ويخافون التصريح ، فيعمدون الى التلميح .. خشية الموت
أو السجن ، وسأنتقل مقطوعة صغيرة لهذا الشاعر من قصيدة طويلة
فى هذا الموضوع ، وقد أعجبت بها .. لا لأنها من روائعه .. بل لأن
فيها نغمة حزينة ... تتألم - عن صدق - من حالة الوطن .. وما
يعانيه من أبنائه ، ومن أعدائه فأبنائه لاهون سادرون فى ترهات
وقشور ، وأعداؤه يتهبون خيراته وهم فرحون مطمئنون .

لن ينال العز شعب كالجهاد	فقد الاحساس خال من شعور
لن ينال المجد شعب بالرقاد	يترك اللب ويعنى بالقشور
انما المجد قرين بالجهاد	ووثام وثبات فى الظهور

ونسجل هنا حقيقة للتاريخ ، وهى : ان بعض هذه القصائد من
شعراء مزابيين ، اخوان لنا ، كانوا يتألمون لما عليه الوطن . ويشاركونه
آلامه وأحزانه .. بالرغم من دسائس الاستعمار وأذنبه الذين حاولوا
أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد . وكانوا يهدفون الى خلق طوائف
فى الجزائر ، مثل : عربى ، مزابى ، بربرى . الى آخر هذه الدعوات
التي سنفها الشعب ، وكفر بها ... وبدعاتها الأثمين .

والواقع : أن هناك مقطوعات كثيرة لشعراء كثيرين قد ضربت
على هذا الوتر ، وتغنيت بالجهاد والنضال . ودعت الى وحدة الجزائر
واتحادها ، وسيرى القارىء - فى باقى دراستنا - نماذج أخرى
تؤيد هذا الذى ذهبنا اليه . وليس من وكدنا أن نكثر من ضرب الأمثلة
وانما غرضنا الاصيل ، هو : اعطاء صورة صادقة لحياة الشعب من

خلال الشعر والأدب ، ومن خلال الفكر ، حتى يتابع تطورات الأحداث ويعرف نفسية هذا الشعب الثائر .

والحقيقة التي لا يمكن اغفالها أو تجاهلها في هذه المرحلة ، هي أن الشعر ، وإن كان شعر دعوة أولا وقبل كل شيء . . . إلا أن هذه الدعوة . . . كثيرا ما صاحبها شيء من التشاؤم ، وشيء من الشكوى المرة ، التي كان يحس بها الشعب وهو يعيش في خضم أحداث جسيمة سنعرض لها بعد قليل . وكثيرا ما يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الظروف . والسام من الحياة « كالشاعر رمضان حمود » الذي عاف الشباب ، ولم يجد في العيش ما يستحق أي عناء : فالدهر نحسه دائم والسعادة في هذه الحياة : سراب خادع .

سئمت الحياة وعفت الشباب ولم أر في العيش ما يستطاب
هو الدهر لا ينتفي نحسه وفيه السعادة مثل السراب

ويستمر الشاعر في مثل هذه الأفكار السود . . يحاورها وتحاوره ثم فجأة يحس بأنه قد سار في طريق ملتوية منحرفة ، ويشعر بأن الضعف قد استبد به ، وأنه أصبح عبدا لهذا الضعف . فيثور على نفسه فينقلب فجأة الى أسد هائج شجاع ، فينشد صارخا :

أقول جهارا ولا اتنى ولو كان في القول مر العتاب
دعوني فما المجد الا اتعنا وخوض الجلائل عند الطلاب
فليست ثمال العلا صدفة ولكنها بركوب الصعاب

ثم يأخذ الشاعر في تانيب الدين يلومونه على هذا الموقف لأنه يفعل كل هذا لصالح أمة يريد أن يناضل من أجل حقوقها التي ضرب بينها وبين أن تنالها بحجاب صفيق من الدعايات الكاذبة والقوة الظلمة ، وأصبحت تعيش بين ظفر وناب ، وتوالت عليها الذئاب تنهشها ، وتنوشها . . من كل جانب . فمن حق الشاعر أن يقف الى جانب الشعب ويكافح من أجل هذه الأمة :

دعوني أناضل عن أمة توارت حقوق لها بالحجاب
دعوني أناضل عن أمة فضائلها بين ظفر وناب
دعوني أناضل عن أمة عليها توالت شرور الذئاب

وبعد ، فقد رأينا كيف كان الشعر . . يتجاوب مع الشعب ، ويسير معه ، ويعبر عن أحلامه وآماله . ولكي تتم الصورة لابد من أن نتعرض لبعض الأحداث الهامة ، في هذه الفترة ، بشيء من التفصيل ، حتى نكون قد رسمنا هذه الصورة في إطارها الصحيح . وبالتالي لتكتمل ملامحها بذهن القارئ الكريم .

(٣) أحداث تاريخية كبرى

لعل الفترة مابين سنة ١٩٣٠ - ١٩٤٥ هي الفترة التي بدا الشعب يتلمس فيها طريقه الصحيح ، ويبحث عن ذاته ، وينشد كيانه وذاتيته التي ضاعت بين ضباب الفرقة والاختلافات الحزبية .

ففي هذا الظرف الذي كثرت فيه « النيابات » ، وتفتحت فيه الأفواه التي تحلب ريفها لامتناس البقية البسافية من دماء الشعب . ظهرت « زعامات » كثيرة .. كلها .. تزعم انها تعمل لتسالح الجزائر ، فوجد من يلبس مسوح الرهبان ويخفي تحتها ذئابا كاسره ووحوشا متعطشة للسلب والنهب كما وجد من يدعى انه نائب عن الامة ، ولاسيما وقد فتحت فرنسا باب النيابة ونشرت الكراسي في برلمانها للبعض ممن لا يهمهم سوى الكراسي . واحس الشعب بالخطر يهدد كيانه ويوشك ان يقضي على مصيره وذاتيته العربية التي حافظ عليها قرونا من الزمن .

احس الشعب بذلك فقام يدعو الى مؤتمر عام شامل يضم جميع الاتجاهات والهيئات لتوحد صفوفها ، وتعمل - ان كانت جادة مخلصه - لفائدة الوطن لا لفائدة الافراد .

وتم اجتماع هذا المؤتمر بالعاصمة سنة ١٩٣٦ ، وضم - كما قلنا - جميع الاتجاهات والحزاب ، هذا المؤتمر الذي حمل شعار المؤتمر الاسلامي الاول يعتبر بحق حادثا فريدا في هذه الفترة القلقة المليئة بالاضطراب والاختلاف .

وانبثق عن هذا المؤتمر نواب ذهبوا الى فرنسا ليفاوضوها في بعض المطالب السياسية . وكان يوجد اذ ذاك وال على الجزائر يدعى «المسيو فيوليت » ، وهو معروف بقوميته بعض الشيء ، ووعدت فرنسا بشتى الوعود ، وماطلت كالعادة ، ووجدت من النواب من أثرت عليه .. فجرت الى جانبها ، وأعطته مقعدا وثيرا « كابن جلول » وغيره ممن كانوا مستعدين في أى وقت ليخونوا الشعب من أجل جلسة مريحة في البرلمان الفرنسي .

قلنا : لقد استبشر الشعب بهذا المؤتمر ، وظنه بداية لحركة شاملة لتوحيد الجهود من أجل العمل الجدى الصحيح فقام الشعر يسجل هذا الحدث التاريخي الضخم . فالشاعر « محمد العيد » ألقى قصيدة في هذا المؤتمر يحيى فيه هذه الجهود البناءة ، وهو يرى أن هذا المؤتمر ، هو الذى يجب مشاهدته وحضوره . لأنه يعتبر بمثابة اللبنة التى سيقام عليها نضج الجزائر ومجدها . وبه نكون قد أحيينا المسائر والحدود . فمن هذا المؤتمر يرن صدى صوت الامة حرا يدوى مثل الرعد المجلجل . كما أن الشعب سيقتم السندود التى حالت بينه وبين حقه فى الحياة الكريمة .

أقيمى لا تفارقك السـعود
شبهت اليوم مؤتمرا عظيمها
به تبني الجزائر من جـديد
ونبعث صوتنا الشعبي حرا
ونفتحهم السـعود الى حقوق
بلدنا رشدا يا كون فاشـهد
سلام الله ايتها الوفـود
أغر لشكك يجب السـعود
وتستوحى المائر والعـود
به يدوى كهمسا تدوى الرعود
حرمناها وان علت السـودود
وأدر كذاه فاشـهد يا وجود

ثم يوجه حديثه الى العدو الذى يماطل ويزاوغ مرة، ويهدد مرة أخرى ،
ويحاول بذلك أن يوقف عجلة الزمن . فيخاطبه الشاعر بهذه النغمة
التي تدل على اليأس من هذه الوعود :

وجـاءتنا الردود بألف بشرى
متنى توفى الوعود ؟ فقد مللنا
فما أغنت بهـا عنا الردود
تساؤلنا متى توفى الوعود ؟

ولكن الشاعر الذى يتكلم باسم الشعب الذى طال انتظاره لهذه
الوعود ، وطال ترقبه . . حتى مل الانتظار ، ويئس من أعدائه .

هذا الشاعر يلتفت الى ناحية أخرى غير المطالبة وغير المؤتمرات
وغير التوسل .

يلتفت الى ابن الشعب ، الى ابن الجزائر ، أملها ، وذخرها الوحيد
فى الدفاع عن حقها بلا مهل . فلماذا الانتظار والقعود ؟ وقد جربنا
كل الوسائل فلم تجد مع هذا العدو اللدود . فما على ابن الجزائر
الا أن يعمل على طرد هذا اللص الذى نهب خيرات بلاده ، فلا بد من
خوض المنايا ، وتقحم الاهوال ، فاما نصر ترفرف بنوده شامخة ، أو
موت كريم يجعل حدا لهذا الشقاء الذى لا خلاص منه الا بالاخلاص فى
العمل ، والاقدام ، والعلم . فبهذه الثلاثة . . يسود الانسان فى هذه
الحياة . واما الذى يريد أن يبغى . . . فسيمحقه هذا الشعب الخالد :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض
وقل يا ابن البلاد لكل لص
فخض يا ابن الجزائر فى المنايا
بأخلاص واقـدام وعلم
بغى الباغى رداك فخاب سعيها
تجلى الصبح وانتبه الرقود
تظلك البنود أو اللحدود
يسود على البرية من يسود
ولباغى الردى ولك الخلود

وهذه القصيدة من أروع قصائد الشاعر ، ومن أقواها تعبيرا من
روح الشعب ، وأدقها تصويرا للأحداث فى هذه المرحلة التاريخية
الهائلة .

واذا كان « العيد » قد حيا الوفود ورحب بها ، فالشاعر « سجنون »
قد رحب بعودتها ، وهنأها بالسلامة فى الرجوع . بقصيدة أقل جودة
من قصيدة « العيد » من ناحيتى الصياغة والمضمون .

يقول الشاعر :

مرحبا معشر الحماية الكرام
مرحبا بالنافحين بحسب
يا مشال الثبات والاقدام
عن حمانا وعزنا المستصام

ثم يوجه الخطاب الى الشعب ، يحثه على المضي وراء هذا الوفد والالتفاف حوله :

انهم جنودك المدافع حقاً والمساوير سساعة الاحجام
هذه العصبة العظيمة قدرا فامتثل امرها تفز بالمرام

وقد اهتمت فرنسا بهذه الحركة الجديدة التي جددت في حياة الشعب الجزائري ، وراى « كمادتها » ان تبعث بلجنة تبحث الحالة في الجزائر ، وتتقصى اخبار هذا الشعب ، وتشاهد ... عن كثب ... مجريات الأمور ، وسرت الدعايات والشائعات بان هناك « فى الحقائق ، حقوقا واصلاحات .

وطال الانتظار .. ولم يبد ما يطمئن الشعب على حقوقه ، فضاق الشعر ذرعا بذلك . وقام « الشاعر العيد » كمادته يسأل ويستفسر عن الحقوق التي نادى بها الشعب ، فقال قصيدة ، اعتبرها من احسن ما قيل فى التهكم والسخرية والاستهزاء بوعود فرنسا الكاذبة . فهذه الحقوق التي قيل انها فى الطريق ... لم تصل بعد ... فهل ضلت الطريق ؟ ام عاقها البحر عن الوصول .. فعجزت عن ان تقطع لوجهه وشطآنه ؟ . ام راقها البحر ... فأخذت تسبح فيه لاهية بدرره ومرجانه ام انها أخذت بسحر « بنات البحر » فاحتجبت عن أعين الناظرين :

ما للحقوق اليأس غير واصلة	وقد سمعنا بها من منذ ازمان ؟
هل عاقها البحر عنا فهي عاجزة	عن قطع ما فيه من لجج وشطآن ؟
ام راقها البحر حسنا فهي سابعة	تلهو بما فيه من در ومرجان ؟
ام اخفت بنات البحر فاحتجبت	عن كل قاص من الرائيين او داني ؟

وبعد ، فهذه السخرية الطريفة يتوجه بها الشاعر الى هؤلاء الذين يبحثون عن الشعب .. وهو امامهم ، ويريدون ان يتقصوا اخباره ، وهى ماثلة لعيونهم .. واضحة لا غبار عليها .. وهم فى بحثهم هذا ... خائفون .. حذرون .. كان الجزائريين من جنس الفيلان لا من بنى الانسان :

يا باحثا معنا فى كشف حالتنا الى متى انت فى بحث وامعان ؟
الى متى انت منا خائف حذر كأننا فى البرايا جنس غيلان ؟

واذا كان الشعر قد اهتم بهذا الحدث التاريخي ، فقد اهتم بالنواب الذين انبثقوا عن هذا المؤتمر ، وتتبع سيرهم ومواقفهم ، فمدح من اخلص للشعب ، وهجا من خانه وتلاعب بمصالحه .

ومن المعروف انه فى هذه الفترة قد كثر النواب الذين تحدثوا باسم الشعب . وكثرت النيابات .. حتى بات النواب أكثر من ان يحصى لهم عدد ، لانهم راوا « فى النيابة » مغنما لهم ، وتجارة تدر عليهم الربح الوفير ، والجاه العريض ، دون ان يتجشموا لذلك مشقة ،

أو يتعرضوا لخطر .: فيكفى ان تعلن ولاءك لفرنسا ، وتوافق سلفا على ما تريده فرنسا . . وشعارك في ذلك (نعم) ، فتصبح بذلك نائبا مرموقا ، وموظفا كبيرا .

هؤلاء النواب العملاء . . هم الدين اطلق عليهم الشعب عنوان (بنى وى وى) الدين لا يرفعون ايديهم في وجه فرنسا . وانما يسرون في ركابها ، ويأتمرون بأمرها . وليست الجزائر وحدها في هذا ، وانما الشعب العربى يشاركها فيه . فنحن نعرف ان الشعب العربى قد ابتلى بنواب كانوا نواب ومصاب على وكانوا اخطر عليه من العدو الاجنبى الفاصب . ولسنا في حاجة الى ضرب الامثلة . . والحاضر يشهد بذلك .

يقول الشاعر محمد العيد فى هؤلاء النواب : -

افدنى براى فى النيابات هل حوت	اساود فى قاعاتها ام وسائدا
ومالك ترغى فى النيابة موعدا	فان ضاق منها طأطا الراس هامدا
الم ياتها ان المعابد حجرت	على الذاكرين العامين المعابدا
وكم من ماو او مكاتب عطلت	على انها تهدى البئين المراشدا

وبعد هذا التهمك بهؤلاء النواب الدين يشبهون «الوسائد» يرمى بها فى اى مكان دون ان تعارض . وتطاطىء الرعوس . . فى ذل وخنوع . . وكأنهم قد جهلوا ما يجرى فى وطنهم الذى حرمت فيه المساجد وحجرت المعابد ، واغلقت المدارس . . وماوى اهل العلم . .

بعد هذه السخرية اللاذمة ، يوجه حديثه للنواب الدين كانوا سوطا يلهب ظهر الشعب . وسيفا مصلتا على رقبة الأمة ، ونسبوا انهم كانوا قبل « النيابة » يعدون الشعب ، واصبحوا بعدها يتوعدون ويهددون هذا الشعب الذى اعطاهم ثقته :

فيا نائبا ناب البلاد بحداد	وخلف شعبا قائما فيه قاعدا
على اى ظهر كنت سوطك منزلا	وفى اى نحر كنت سيفك غامدا
ومالك ترغى فى النيابة موعدا	الم تك من قبل النيابة واعدا
ويامجلس النواب انك قاطع	يدا كنت منها «لو تبثت» ساعدا

وهناك طائفة اخرى غير هذه قد مشت فى ركاب الاستعمار ، لم تتخذ النيابة سببا لآربها ، وانما اتخذت التقرب للعدو بطرق مختلفة ، مثل التجسس ، او التستر وراء الدين « كممثلين مزيفين للدين الاسلامى » او موظفين من نوع آخر « كالقياد والافات والباش آفات » وما الى هذه الالقاب التى هى من مخلفات الاتراك . والتى اطلقتها فرنسا على اذنانها ، السائرين فى فلكتها ، مثل « البكوات والباشوات » ، فى مصر .

ووقف الشعر لهؤلاء . . . كما وقف بالمرصاد لاولئك ، يرد عليهم ، ويكشف خياناتهم ، ويظهر حقائقتهم للشعب الذى كاد يضيع بين هؤلاء .

وأولئك . فهذا الشاعر (فتى الوادي) وهذا هو الاسم الذي وقع به تحت قصيدته التي ندب فيها الفضيلة الجريئة التي أهدر دمهها هؤلاء الأدعياء ولعله « مفدى زكريا » أو « رمضان حمودة » والمهم : هو أن الشاعر قد بكى بمرارة ، وتألم لما فظيما .. عندما شاهد الفضيلة تهدر كرامتها ، ورأى بعينه : كيف تداس مقدسات الشعب :

ويلتاه خذى يدي من وهادي هذه ادمعى وذاك فؤادي
يا لذكرى سـودد قد تنفى تهت طيات كل عصر تلاد
واشهدى مصرع الفضيلة كلمى تهت اقدام قارعات العوادي
صوبوها تفرى التسلوب شظايا اسمها في صميم قلب البلاد

لقد ذبحوا الفضيلة ، وداسوا حرمة الوطن ، وهمهم في ذلك : أن ينالوا حظوة لدى أسيادهم الذين لم يبخلوا عليهم بالوسمة والنياشين والالقاب والمراكز .. هؤلاء الذين يستحقون لعنة الشعب وغضب أبناء الشعب الأحرار :

همهم في الحياة خطة جاسو س امين على حمى الآساد
بهجة العيش أن ترى الشعب منكسو دا وتعطى بنعمة الأسبياد
يتهادون بالوسامة والالقاب والكبيرياء أي تهساد
يا لحما الله أوجها ، رسم الشر على صحنها هنات السواد
وبطونا ملئت سـحقنا وطافو نا وبالدين شبكة الاصطياد

ولم يكتف الاستعمار « بطبخ » هذه العناصر واستغلالاتها ، واصطناع العناصر الخائنة ليستعين بها على قتل الروح الثورية في الجزائر واخمادها . بل انه عمد الى وسيلة أخرى ، هي أهم وسائله ، وأكثرها قضاء على وحدة الشعب ، عمد الى بث التفرقة ، وإثارة الفتن ، وتشجيت اقوى الشعب .. ببعث فكرة العنصرية ... محاولا استغلالها الى أبعد حد . فظهرت فكرة « العربى ، والبربرى ، والمزابى » وما الى هذه الترهات التي لم يؤمن بها الشعب في أى يوم من الايام ، وانما عششت في رموس الفرنسيين الذين ظلوا يحلمون بها .. دون أن تتحقق في الواقع .

ولم يسكت الشعر في هذه المرة أيضا ، وانما وقف ليدافع عن وحدة الجزائر ، وينادى بها ... كوطن للجميع ، فلا فرق بين العربى والبربرى ، والمزابى ، كلهم من أصل واحد ، وأرومة واحدة ، تجمعهم أرض واحدة ، وتظلهم سماء واحدة .

فالشاعر « الزاهرى » يوجه خطابه الى المزابى الذي تعرض للخطر مثل كل جزائرى ، ويذكره بأن الجزائر ، موطن الجميع ، ترابنا فيها واحد ، وهى الأم التي واست في الصبا كل مريض ، لا فرق بين هذا وذاك ، ويتعهد بأن : سيقضى لها حق الأمومة ، لانها بلاده ، ومحط ركابه وآماله . بل هى الجنة الفيحاء من قبل أن ينشأ ويولد .. ولو أنه يحس بالفربة فيها . وهى العروس الجميلة التي تجلى فيها الحسن والجمال ، ومد العز فيها جذوره منذ الازل :

وليس لنا الا الجزائر موطن
هي الام واست في الصبا كل مرضع
ساقضي لها حق الامومة انها
هي الجنة الفيحاء من قبل نشاتي
عروس تجلت في المحاسن خطبة

ترابك فيها واحد و ترابي
وفيها اهتدى الساعون سبل صواب
بلادى التي فيها محط ركابي
وان كنت ظلما نازلا بيباب
على جانبيه العز مد بناب

كذلك لم يسكت الشعر عن بدعة ظهرت في هذه الفترة ، هذه
البدعة ، او هذا الحادث ، هو : (فكرة الاندماج) والدعوة الى الاتحاد
مع فرنسا ، وقد كان الاستعمار ما يزال يذيع بأن الجزائر فرنسية ،
وانها جزء من فرنسا ، وان الجزائري مواطن فرنسى ... الى آخر هذه
الادعاءات والمفالطات التاريخية السافرة .

وقد وجد الاستعمار من يؤيده في هذه الفكرة ، ويساند هذه
الدعوة ، فوقف الشعر « كعادته » يسفه أحلام العدو ، ويرد على من
يؤيد فكرة الاندماج هذه . فهذا « الامام باديس » كان صريحا في الرد
على هذه الفكرة ، وكان صريحا في موقفه عندما قال : ان الشعب
الجزائري شعب مسلم ، عربى الجنس واللسان ، يمت الى العرب
بصلة النسب والدم والقربا . والذي يدعى غير هذا ... فقد
كذب ، او اراد أن يدمجه في فرنسا .. فهو يطلب المحال والمستحيل :

شعب الجزائر مسالم والى المروبة ينتسب
من قال : حاد باصله او قال : مات فقد كذب
او رام ادماجا له رام المحال من الطلب

واذا كان الشعر الجزائري قد اهتم بمجريات الأحداث داخل
الوطن ، واهتم بالقضايا الوطنية الصميمة . فهو لم ينس القضايا
القومية الاخرى . فقد تحدث عن مشاكل الشرق العربى ... وخاصة
مشكلة فلسطين . وسنشير اشارة موجزة الى هذا ، لاننا سنفرد له
حديثا مستقلا شاملا . وانما اردنا أن ننبه الى ان هذه الفترة ، التى
غلى فيها مرجل الشعب ، وطفئت عليه الحوادث الجارفة ، لم تنسه
القضايا الاخرى القومية ، وحتى الافريقية الاخرى .

فالشاعر « محمد العيد » قد حركته أحداث فلسطين ، خاصة
ثورتها سنة ١٩٣٦ ، واثارت في نفسه شجونا وآلما ، فراح يضرب جام
فضيه على « بنى التايمز » الذين جاروا على شعب عربى أصيل .
ووقفوا ينظرون الى فلسطين كيف تذبج بيد عصابات صهيونية دون أن
يحركوا ساكنا . بل كانوا يؤازرون اليهود على عرب فلسطين الاحرار .
وماذا بقى للعربى الذى ديس كرامته ونهبت خيرات بلده ... سوى
الحرب !؟ والعربى لا يخشى الحرب . فحرب البسوس ، وحرب الفجار
... تشهدان له بالشجاعة والبطولة ، والعربى : لا يركب هذا المركب
الا اذا سيم خسيفا وهو لا يرضى بالخسف ولا يستنيم الى القهر :

بنى التايمز قد جرتم كثيرا فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
الم يؤلمكم حرم مباح وشعب يستجير ولا يجار

وتكبة أوجه بالكشف غير
كم احتجت لظلمكم وضجت
اذن فالحسرب للعربى ذاب
شددتم قهرة ففسدا انفجارا
مثل جمالها صنع العجبار
ولكن في قلوبكم الحجبار
وهل تخفى البسوس أو الفجار
وعقبى شدة القهر انفجار

وكما أسلفنا لم يسكت الشعر حيال القضايا الأخرى غير العربية، فقد شارك الشعر أيضا في مأساة الحبشة ... عندما هجمت عليها إيطاليا عام ١٩٣٥ فقام الشاعر « محمد العيد » يدرف الدمع الحار ... يواسي به أخوته الأفريقيين ، ويؤنب « الفاتيكان » الذى بقى صامتا أخرس حيال هذه القضية التى مست المسيحية التى تدعو الى الحب والسلام ، فاذا بروما المسيحية تعتدى على دولة مسيحية أخرى .. هى الحبشة .

ما بال روما للأذى جردت
نيرون روما قام من قبره
سيفا لها في دينها يظمن
في أرضها يفتن من يفتن
ثم يوجه الشاعر نقده ولومه للشرق . هذا الشرق الذى وقف هو الآخر ساكتا لا يتحرك مثل الفاتيكان :

والشرق ويح الشرق مستغرق
يا شرق خذ حذر من جيرة
في النوم لم تطرف له اجفن
هاموا بحب الجور .. مذ هيمنوا
ثم فى نهاية القصيدة يختمها بنداء حار يعزى به الاحباش المظلومين، يريد مواساتهم بالقول ، وتعزيتهم بالكلام ، لان الجزائر تعاني نفس الشيء :

يا معشر الاحباش صبرا لما
أنتم لنا . رغم النوى . أخوة
يدمى من الجراج ما يدمى
فما علينا خطبكم هين
من التعازى تنبىس اللسن
ما عندنا حول سوى ما به

ومن هذه الدراسة الموجزة للشعر الجزائرى ، يتبين الى أى حد كان الشعر مرآة للأحداث ، ولسانا صادقا أميناً للتعبير عن احساس الشعب تجاه قضاياها : الخاصة والعامة ، الداخلية والخارجية . وقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك ان الشعب لم يكن غافلا ولا ساهيا عن مجريات الاحداث ، ولا كان منطويا على نفسه كما كان أعداؤه يذيعون عنه .

بقيت ملاحظة حول الشعر - لا بد من التعرض لها - وهى : ان الشعر فى هذه المرحلة ، وان كان قد عبر تعبيرا صادقا عن الاحداث، وسجلها بصدق واخلاص، فهو من جهة أخرى : لم يتعرض الى مواضيع أخرى من حياة الشعب ، فيكاد غرضه الاول والاخير .. هو أن يسجل الاحداث السياسية البارزة دون أن يتحدث عن وصف الطبيعة ، أو يعالج بعض النواحي الاجتماعية الأخرى .. كال فقر ، والمرأة، وما اليهما من المواضيع الحية الأخرى ، ولعل للشعر عذرا فى ذلك : أن هذه المرحلة .. انما هى مرحلة الدفاع عن الذات والكيان وتثبيتهما والدفاع عنهما .

هذا من حيث الموضوع . اما من حيث الصياغة والتعبير، فالشعر في هذه المرحلة قد حاول أن يبتعد - ما أمكن - عن الابتدال، وأن يعبر بالفاظ لها طابع الايحاء والرشاقة، وإن كان لم يتحرر من التمايز المألوف . . التي تميل الى الطنطنة والفخامة الفارغة بيد أنه قد تحرر من الفاظ الوعظ والارشاد الى حد ما . مما يجعلنا نقرر : بأن الشعر بدأ يتطور تطورا لا بأس به ، ويجاول الانقلاب من السطحية ، وإن بقي غارقا الى أذنيه في بحور الخليل ، وإن لم يكن وفيا لها في بعض الأحيان . خصوصا لدى الشاعر « رمضان حموده » . والشاعر في هذه الفترة كان لا يهتم الا بأن يقول كلمته ، وأن يسمع صوته للناس ، ويسجل الوقائع . . دون أن يعتنى - الاعتناء كله - بالناحية الشكلية التعبيرية .

ثم يجب الا ننسى : أن الثقافة العربية في هذه الفترة قد تعرضت لامتحانات قاسية ، وتعرضت لخنق ، بل لقتل كبير ، مما جعل الشعراء لا يتصلون بالشرق الذي كان « شوقي » و « حافظ » . وأقرانهما ، قد اتوا بالمعجزات البيانية ، والروائع الشعرية الفذة . فمجال الشعر في الجزائر حينئذ كان ضيقا ، والشعراء معذورون . . الى حد كبير . . أن أردنا انصافهم ، ويكفى انهم كانوا لبننة في بناء صرح الأدب الجزائري الحديث الذي سنتبين ملامحه في المرحلة الآتية ، والتي تليها بحول الله . . .

الفصل الثالث

شعر اليقظة

١ - شعر مأساة ٨ مايو :

تعتبر مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، فاصلا تاريخيا هاما في حياة الشعب الجزائري من الناحيتين : السياسية والثقافية .

فقبل هذه المأساة ... كانت السياسة تدور في حلقة مفرغة ، افكار مهوشة مضطربة ، وأصوات ترتفع ثم تنطفئ ، ودعوات متناقضة ، وقوى موزعة مشتتة ... تبحث عن الطريق .

والشعب يقف وحده في الجبهة ، يرقب كل هذه القوى المتصارعة المتطاحنة .

وجاءت الحرب الثانية ، فوجد الشعب نفسه يخوضها رغم أنه ، وانتصر الجلفاء . وقامت مظاهرات في الجزائر ... رفع فيها العلم الجزائري « لأول مرة » جهارا ..

مظاهرات سلمية تعبر عن انتصار الحرية في العالم الحر ، وترجو من وراء انتصار هذه الحرية أن تنال منها نصيبا يساوي التضحيات التي قدمتها الجزائر في هذه الحرب .

فماذا كان رد العالم الحر على هذه المظاهرات السلمية

كان الرد : هو القتل الجماعي ، ففي خلال ظرف لم يتجاوز ٢٤ ساعة قتل من الجزائريين ما يزيد على ٤٥ ألف نسمة ، منهم الشيوخ والاطفال والنساء ، حيث هدمت المساكن ، وأحرقت دواوين بأكملها ، وخاصة في : خراطة ، وقالة ، وسطيف . وامتلات السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب .

وهنا ... فقط ... أدرك الساسة الجزائريون - أو البعض منهم على الأقل - أن آمالهم في فرنسا قد انهارت ، وأن الاساليب التي كانوا يعتمدون عليها في كفاحهم قد تبخرت ، وأنها أصبحت غير مجدية بالمرّة ، وأن الطريق أصبح واضحا ، والوسيلة أوضح . وأن الهدف قد تحددت معالمه الآن .

اذن فقد تبلورت الافكار ، وزالت تلك الفيوم التي كانت تغطي الحقائق ، وبات على الشعب أن يتشوف الى الأفق البعيد المليء طريقه بالعقبات والاشواك والدماء . فليس هناك ... اذن ... سوى الكفاح .

الكفاح المنظم .. الكفاح الايجابي الفعّال الذي يعتمد على توضيحات الشعب .. لا على العرائض والورق والاحتجاجات .

هذا من الناحية السياسية . أما الناحية الفكرية والثقافية .. فان الشعراء ، والطبقة المتفعة - عامة - وجدوا انفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم ، وراوا ... بأعينهم ... كيف تهان كرامه شعبهم . وتُداس حقوقه ، وهم مسئولون أمام الله والضمير والوطن . كما وجدوا شعبهم يعيش في جهل فاضح ، وفقير مدقع ، وذلل ابدى فأخذوا معاولهم يهدمون هيكل الجهل المتداعي ، ويبنون صرح الثقافة قويا شامخا . فقاموا - فعلا - بدور توعية الجماهير ، وتنوير الازدهان ، حيث وجدوا في مأساة ٨ من مايو ... المعين الذي لا ينضب .

ومن هنا اعتبرنا هذا الحدث .. بداية مرحلة جديدة في حياة الشعب ، وفي حياة الشعر والفكر ، وجعلناه بداية يقظة شاملة وعنوان لهذه المرحلة بعنوان « شعر اليقظة » .

ولعل المرحلتين السابقتين قد تداخلت فيهما الاوقات والازمنة ، بحيث لا يمكن تحديدهما تحديدا دقيقا مضبوطا . أما في هذه المرحلة .. فلا يمكن أن يختلف فيها اثنان .

وبالرغم من أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائري ، وأيقظته من غفلته ، وهزت العالم أجمع ، بالرغم من ذلك ، لم نجد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائري ، أو حتى : تسجل هذا الحدث البارز ، ولم أدر لماذا !

ولعل لبعض الشعراء قصائد في هذا الموضوع ، ولكني لم أعثر على شيء في المراجع التي رجعت اليها ، وهي التي كانت تنشر أغلب الانتاج الجزائري في هذه الفترة .

بيد أنني وجدت قصيدة للشاعر « الربيع بوشامة » وإن كانت متأخرة عن الحادث ، إذ أنه نشرها سنة ١٩٤٩ . كما وجدت قصيدة للشاعر « أحمد معاس الباتني » وهي قبل الثورة بقليل ، كما أنها لم تتحدث بأسهاب عن مأساة ٨ مايو . ولم أجد للشعراء أو الشيوخ سوى قصيدة للشاعر الكبير « محمد العيد » وهي غفل من التاريخ . واللوم لا يوجه لشعرائنا الشبان بقدر ما يوجه الى شعرائنا الشيوخ .. لأنهم هم الذين عاصروا هذا الحدث ، وعاشوا هذه المأساة ، وراوا « بأعينهم » مقاومة شعبهم ، وظلم عدوهم .. وجبروته . فكان من حقهم أو من حق وطنهم عليهم .. ألا يتجاهلوا أمرا كهذا . ثم أن تسجيل الحدث وحده لا يكفي . أنا تريد تصوير حياة شعب كامل ونضال أمة جمعاء ..

ومن الوفاء للحقيقة والتاريخ : أن نسجل في هذه الدراسة للشاعر « الربيع بوشامة » سبقا وامتيازاً في هذا الموضوع . فقد تحدث بأسهاب عن هذه المأساة ، تحدث عن شهر مايو المشثوم .. وتحدث عن « خراطة » إحدى القرى التي دمرتها قنابل فرنسا . فماذا قال « بوشامة » في شهر الدماء والدموع ؟

بدأ الشاعر قصيدته بالدعاء على هذا الشهر ، وبالسخط عليه .
فقد فجعت فيه أقوام كثيرة ، وشابت فيه الصبية الصفار من أبناء
الجزائر الرضع ، فهو شهر شؤم .. انماعت فيه وتميعت - الصخور ،
وتفطرت الاكباد الرحيمة . فتاريخ هذا الشهر .. شؤم وكرب ، سطر
من دم الاحرار ، ومدامع الايتام . واذا كانوا قد اعلنوا فيه السلام ،
فابن الجزائر لم ير السلام ، وانما رموا به في حرب وجحيم . ثم اخذوا
ينهبون امواله وحياته ، ويتشربون مهجته ، في هيام ، ودون ما رحمة
أو شفقة .

لقد طلبوه ليخوض معهم الحرب ويشارك في الدفاع عن الحرية .
وعندما حرروا بكفاحه ارضهم واوطانهم جزوه جزاء سنمار :
واليك ماقاله الشاعر « الربيع بوشامة » :

قبحت من شهر مدى الاعوام	يا (مايو) كم فجعت من اقوام
شابت لهولك في الجزائر صبية	وانماع صخر من اذالك الطامس
وتفطرت اكباد كل رحيمة	في الكون حتى مهجة الايام
تاريخك المشثوم سطر من دم	ومدامع في صفحة الآلام
ان اعلنوا فيك السلام لقد رموا	بابن الجزائر في سوء ضرام
وتناهبوا امواله وحياته	وشربوا مهجاته بهيام
طلبوه للهيچاء حتى حرروا	بكفاحه .. فجزوه بنت حسام

ثم يتابع الشاعر وصف هذا اليوم المشثوم حتى يصل الى ان هذا
اليوم يجب ان يبقى رمزا خالدا لنضال الشعب يستمد منه الطاقة
لتابعة الكفاح .

لا بد ان يبنى كرمز خائده يوحى الشجاء ويصيح مثل الهام

وينتقل الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن اسرة تكبت في هذه المأساة
ولا يريد الشاعر سوى ان يعطينا صورة لما وقع للشعب الجزائري
المفجوع ، وحديثه عن هذه الاسرة : انما هو كإنموذج فقط . ويبدأ
الشاعر حديثه عن رب الاسرة وكيف قيده في الاغلال عريان صاديا
عطشان يسوقه الجند - جند فرنسا - للاعدام . وأعدموا معه أبناءه
وكيف كان هذا الاعدام ؟ لقد رموهم جميعا من حائق وتركوهم طعاما
للسباع والوحوش . ولم يفهم ان يرموا بهم من حائق وانما رموهم في
النار المتهبة ايضا . وذهب الجميع وبقيت دارهم مفجوعة تندب اهلها .
وبقيت مع الدار الزوجة الايم والأم الوالدة وولائد رضع .. بقوا جميعا
يعيشون في رعب وحزن وتكل فمن لهؤلاء جميعا بعد هذا البرزء الفظيع ؟
ليس لهم سوى الشقاء والالم :

القوه في الاغلال نضوا صاديا	واستيق بين الجند للاعدام
ورموا به وبولده من حائق	جزر السباع كجيفة لسوام
وتتابع الاولاد ثم ابوهم	يساقون في النيران كاس حمام
ذهبوا وامست دارهم مفجوعة	تبكي رزيتها وذل مقام
من للحيلة من لام واليه	وولائد من رضع وفطام ؟
لاذوا بحزن قاتل ومدامع	مكبوتة تذكي أشهد ضرام

ولم ينس الشاعر نفسه ، فقد ذكر ما قاساه هو في هذا الشهر - شهر الربيع - شهر الحب والجمال ، شهر التفتح والسمير ، ولكنه بالنسبة للجزائر : شهر المصائب والدماء والنحس . ثم يختم قصيدته موجها الخطاب الى هذا الشهر ، يدعو لينتقم من أعدائه ... وهو يتعجب من صمته . ألم يشوه جماله أعداؤه ؟ وهذه الجثث التي امتلأ بها حرمه ، وهذه الأذان المصلومة ، والكبد الرطبة التي شويت .. وكانت من الذ الطعام لهؤلاء الوحوش . فرفع أذن شكوى من ضارع مبتهل قد كفر بالحكم والحكام ، واستعجل العقاب للغرب الذي طغى وتجبر وتضرع الى الله أن ينتقم منه بقواصم تقضى عليه وعلى ظلمه . وكنت أتمنى لو أن الشاعر قد توجه الى الشعب أيضا ليحثه على الانتقام والنضال من أجل سيادته وحرية بلاده . ولكنه « كعادة شعرائنا المتدينين » ينظر الى الأشياء بمنظار الدين .

يقول الشاعر مخاطبا شهر مايو

يا (مايو) مالك واجما لم تنتقم هذا حرامك بالدماء مشوه مهم وآذان وكبد رطبة فارقم الى مولاك شكوى ضارع عجل لهذا (الغرب) من رب السما	او ماسقاك الظلم اسوا جام ؟ ! قد عجز بالارواح والاجسام شويت وكانت من الذ طعام يرا من الحكام والاحكام بقواصم مجتاحة وفهرام
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

اما الشاعر « محمد العبد » فقد فجر فيه هذا الشهر ينابيع الاحساس المرير ، انه لم يستطع كتم هذا الاحساس .. لان جرح مايو لا زال ينزو بالدم ، ولم يجد له آسيا ياسو جرحه . والشاعر يأس من الذين أحدثوا هذا الجرح . بل انهم مازالوا في غيهم سادرين .

وتمر الليالي على هذا الجرح الدامي ، فلا يجد دواء منهم سوى العنف والبطش . وكلما رام الشعب برا هذا الجرح .. زادوه جراحا أخرى أعنف وأشد ؛ وقد ضج هذا الشعب الجريح بالشكوى - ولكن لمن يشكو ؟ انه يشكو الى عدو لا يرحم ولا يعرف الشفقة ولا العطف ولا العدل .. وقد سئم الشعب هذه الشكوى الى العدو ، وهل العدو يرحم او يحس بالجرح الذي كان السبب فيه ؟ .. اذن : فلم يبق على الشعب الا أن يخوضها شعواء بالمرهفات والتروس :

اكتنم وجدى او اهدى احساسى وارقب ممن أحدثوه ضمانة تمر الليالى وهو يدمى فلم نجد اذا ما رجونا يراه تؤد افقنا فيالجريح ظل ينكا جرحه يضج ويستعدى بغير نتيجة سئنا من الشكوى الى غير راحم ولا خير في عد المظالم وحدها	وثامن ما بى جرحه ماله آسى وهم فى جهاح لم يميلوا لاسلاش له مرهما منهم سوى العنف والبأس بأحداث سموة وقعها مؤلم قاس ويؤذى بلا ذنب على أمين الناس ويشكوبلا جدوى الى غير حساس وغير محق لا يدين نقسطاس اذا لم تب عن مرهفات واتراس
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

وقد نجح الشاعر في تصوير احساسه بمأساة مايو ، كما استطاع أن يعبر عن نفسية الشعب ... عندما بدل كل الجهد ليصل الى نتيجة مع العدو ، وقد سدت في وجهه جميع السبل .

ولكن الشاعر قد ترك أهم شيء في الموضوع . فقد كان من حقه أن يشيد بصمود الشعب في هذه النكبة ، ويحثه على العمل والنضال ، ويرسم له الطريق بوضوح أكثر ، لأبكلمة أو كلمتين . وهذه حقيقة تكاد لا تخلو من شعر شعرائنا ... خاصة الشيوخ منهم فكثيرا ما يعمدون إلى التقنية ، وإلى الرمز والتأويل ... بدل المجاهرة والتصريح ، وقد تعذرهم في وقت من الأوقات . أما ، والشعب قد برهن على وعي حقيقي ويقظة شاملة ، فكان من حقهم أن يرشدوه ، ويبصروه ، ويهزوه ... أن دعا الأمر إلى الهز والدفع . والا فما قيمة الشاعر والشعر إذا لم يكن لسانا صادقا يعبر عن آلام شعبه . ويرشده إلى الطريق الصحيح . . طريق الحرية والتحرر .

بقيت قصيدة الشاعر « أحمد معاش البائني » . وقد قالها وهو يعالج بفرنسا . . قالها في « ذكرى ٨ مايو » وهذا هو عنوانها .

والقصيدة في الواقع موازنة أو مقابلة بين « جبال الالب » و « جبال الأطلس » وقد تحدث فيها عن سكان كل من الالب والأطلس . فقد جاء الأولون لاستعمار إفريقيا ، وكيف وقف أبناء الأطلس الأحرار يدافعون عن كرامتهم وعزتهم ؟ !

يقول في وصف جبال الالب :

متاهات في الجمال العاري	يعنوها متاهة الأزهار
شمخت بأنف صاعرات خدها	متبرجات بهجة النظار
شقت على السحب الستائر واعتلت	ترهو بهام رصعت بنصار

ولكن هذا الجمال الساحر ، وهذه المناظر الخلابة ، لم تؤثر في سكان الالب ، ولا رفعت من مشاعرهم واحاسيسهم ، بل دفعتهم إلى إفريقيا ينشبون فيها أظافرهم ، فرسوا على شطآنها ورمالها مثل الأفاعي في رحاب الدار .

مدت إلى إفريقيا أظفارها	ياويل إفريقيا من الأظفار
ورمت على شطآنها ورمالها	مثل الأفاعي في رحاب الدار

ثم يتحدث الشاعر عن أبناء الأطلس ، وعن موقفهم من هؤلاء الأعراب ، فالأطلس لم يحن هامته ، وإن كان الزمان قد أوهن من عظامه لقد رفع عقيرته يصيح في أبنائه يحذرهم من هذا العدو الفاصب الذي أن تمكن من أرضهم فسيكون الجميع طعمة لهؤلاء الأفيار .

والأطلس لم يتعود أن يخضع فهو رأس إفريقية ، وكيف للرءوس أن تنحنى ؟ ! وللهامات أن تقهر ؟ !

لكن اصلع في الشمال مجنبا	أودي الزمان بريشه المعطار
رفع العقيرة وانبرت أصداؤه	ملء الأثر تصيح في (التانار)
ويلي وويلكم إذا دام المبدأ	فانا وانتم طعمية الأغيسار
أنا رأس إفريقيا ورمز شمالها	ما للرءوس الشسم من قهار

ويستمر الشاعر في وصف الأطلس ، ثم في وصف ججافل العدو . .
الذي غزا الأطلس ، وصب عليه جام غضبه ورماه بكل داهية :

فالنار تهدر والمنايا حولها تأتي على الفولاذ والاحجار
والأرض ترجف باستحاطل سرورها واساح نصف بالردى والنار

والواقع : أن هذه القصيدة من روائع الشاعر ، وهي تبلغ حوالى ثمانين بيتا ، ولولا خوف الإطالة لنقلتها كلها . . إنها ثورة بردى ، يرمى بالحمم ليوقظ النيام ، ويستفز المتكاسلين ، ويحث المتخلفين عن الرب الصاعد . وهي تنبئ عن طاقة شاعرية هائلة لدى الشاعر ، كما تظهر بجلاء : أن الشاعر قد حاول أن يبتعد عن التعابير الكلاسية التي سمجتها الأذان ، وقد أعان على ذلك التعابير الموحية . . التي تلمح ولا تشرح ، وترمز ولا تصرح . . وهذه الطاقات التمييزية الموحية ، هي التي تجعل لشعر الباتنى هذه النكهة ، بل هذه النفمة . . التي تجعلك لا تمل ترديده أبدا . وسنتحدث عن هذا في مكان آخر عندما نتعرض لخصائص شعر هذه المرحلة .

وخلاصة القول : أن مأساة ٨ من مايو أجدر بأن يقال فيها أكثر من قصيدة لشاعر ، وإن يكتب عنها الأدباء ، ويقول عنها الشعراء ، ولا يفهم حقها لأنها هي الشرارة الأولى التي نبهت الأذهان إلى الحقيقة السافرة التي خفيت عنا زمنا ما . وعسى أن يتحقق هذا الأمل ، فنرى قصائد أخرى ، بل زوائج أخرى ، تسجل أحداث هذه المأساة التي كان لها الفضل في يقظة الشعب وتوجيهه . . الوجهة الحقيقية . . . نحو الكفاح ، من أجل حرته ، واسترداد كرامته السليبة .

(٢) مع الشعب

الحقيقة التي لا ينفي أن تغيب عن الأذهان ، والتي يجب أن ننظر على ضوءها للشعر الجزائري ، هي أن الشعر كان دائما وأبدا يقف إلى جانب الشعب يواسيه في كل ملمة تلم به ، أو رزء يصاب به ، وما أكثر ما أصاب الجزائر من ويلات على يد أعدائه ومستعمريه ، وما أكثر ما نكبته . . . حتى الطبيعة نفسها . . . وما أقسى الطبيعة عندما تثور وتصب غضبها على الناس . . وقد غضبت الطبيعة على مدينة (الأصنام) فدمرتها بزلزالها الرهيب سنة ١٩٥٤ ، كما غضبت قبائلها على (خراطة) فكادت تبعد ساكنيها عن آخرهم . ووقف الشعر ليسجل هذين الحدثين الرهيبيين ، وقف مع الشعب يواسيه ويشد من أزره .

فهذا هو الشاعر «محمد العيد» في قصيدته الرائعة «زلزال الأصنام» يصرخ من أعماق أعماقه ، متألما ، ملتاغا . . من هذه النكبة التي دمرت مدينة بأجمعها . بل أمست الجزائر من أقصاها إلى أقصاها . . وأصبحت تعيش في حداد ورهبة . مثل أم فجعت في إحدى بناها العزيزات . . وهو يتأسف ويتوجع على الأصنام التي رجعت دورها . . وتهدمت ، وداهمها الزلزال ليلا وهي « تحلم » في نومها الهادئ المطمئن :

تدعو دراكا .. تستغيث رجالها
ولهى تئن فمن يكون ثمالها
حسنا شوهت المنون جمالها
تحت الظلام وزلزلت زلزالها

ويح الجزائر ما دهاها مالها
ويح الجزائر اصبحت مكروبة
مفجوعة نكلت فتاة برة
اسفى على الاصنام رجت دورها

وبعد : هذه الصرخة المتأللة من الشاعر تأخذ فى وصف هذا الزلزال
فيتعجب من هذه الرجة الغربية التى لم يشاهد الجيل مثيلا لها .

كيف ؟ لقد دوت كالرعد القاصف ، وهوت على السكان فأخرجتهم ،
بل طحنتهم وأودت بهم ، فأزهقت الارواح ، ومزقت الاوصال ، ولم يقتصر
فى تدميرها على العباد ، بل انهارت قد قصت حتى على كل من وما اعترض
طريقها . فلم تسلم لا الكرمة ولا الحديقة ، ولا من استغل غلالها ، وقد
قوضت المقاصر التى زينت بالأسرة التى طالما أوت عرائس خودا لا تحد
دلالها . فمضت على آمالهن .. وأحلامهن ، وأصبحن تائهات .. مشردات ،
وكم من أم عطوف صاد الحمام وتخطف وحيدها .. كالنسر الذى هوى على
حمالة فاغتالها :

ما شاهد الجيل الحديث مثالها
بالأهلين وأخرجت أثقالها
مهج العباد ومزقت اوصالها
عصفت بها ومن استغل غلالها
تؤوى عرائس لا تحد دلالها
من بينها شؤما يقبح فالها
تبكى سعادتها وتندب مالها
كالنسر صاد حمالة فاغتالها

عجبا لها من رجة أرضية
دوت دوى الرعد ثم تكدت
أودت بأعلاق التلال وأزهقت
كم كرمة ألوت بها وحديقة
وسراية قد زينت بأسرة
فسقت بها فتقوضت وتعوضت
امست مشردة تهيم .. فقيرة
كم مريض صاد الحمام وحيدها

والشاعر قد حاز فى سبب هذا الزلزال .. كما حاز غيره ، فهل
السبب هو تأثير التجارب الذرية ؟ أم صواعق جوية ؟ أم هزة تربة
نارية ؟

لم نكتشف سببا له متيقنا الا افتراضات تحوكم خيالها

وانما الشئ المتحقق ان هذه البلدة قد بقيت حطاما فوق حطام ،
وركاما على ركام ، فلا ترى .. الا الديار وقد تكسرت بعضها فوق بعض
والجبال قد هوت مطاطئة الرعوس فحطمت صخورها ورمالها . وكأنها
سفن فى بحر هائج مضطربة تميل يميننا وشمالا . ولربما ترى دارا قد
هزتها هذه الرجة من أساسها فأدارتها مثل الرمح تماما . وانك لتشاهد
أعاصير الرياح .. وقد شنت حربها على الأكباد .. فسددت إليها
نبالها . وأكثر من هذا : تشاهد الكواكب يلفها السواد القاتم مثل هؤلاء
الشكالي .. وقد استشعرت اسمالها . وترى أيضا الأخاديد .. وقد
انفتحت شقوقها رهيبه ، عميقة ، موهلة فى الثرى أيفالا :

وترى الجبال على الجبال امالها
حول السفوح صخورها ورمالها
صعب تميل يمينها وشمالها
وادارها مثل الرمح واجالها

خترى الديار على الديار اكبتها
خربت مطاطئة الرعوس فتبددت
فكانها سفن ببحر هائج
ولرب دار هزها من أسسها

وترى اعاصير الرياح اثارها حربا « تسدد » للكبود نبالها
وترى الكواكب في سواد قاتم مثل الثكالي استشعرت اسمائها
وترى اخاديد الشقوق رهيبة في العمق توغل في الثرى اغالها

ويستمر الشاعر في وصف هذا الزلزال العنيف . . وصفا لم نقرا مثله لشاعر عربي في مثل هذا الموضوع ، حتى الذين تحدثوا عن « هيروشيما » . ولقد حشد لها من الصور البيانية ، والأخيلة ، والتعابير الموحية . . . التي تجعلك تحس احساسا قويا برهبة هذا الزلزال وبعنفه . وانظر الى وصف الكواكب التي لفها السواد مثل هؤلاء الثكالي اللائي استشعرت اسمائها ، ان هذا التعبير « استشعرت » يوحي بالحساسية المفرطة ، والشعور العميق بالكارثة . ويختتم الشاعر قصيدته بلوم مواطنيه . . الذين يلهون ، ويمرحون ، ويجرون خلف اللذائذ ، ساهين عن واجبهم تجاه وطنهم الذي يرجو أن يقاتل في سبيل حقه . وهم يعرقلون نضاله ، وكفاحه . فكان جزاؤهم هذا الزلزال :

وبنو الجزائر في سفاسف عيشهم خلف اللذائذ ينشدون وصالها
ترجو الجزائر أن تناضل حرة عن حقها ، فيعرقلون نضالها

فهذه القصيدة تعتبر من غرر الشعر العربي في وصف الكوارث والمحن ، وهي دليل على أن الشاعر الجزائري لم يكن بعيدا عن شعبه ، بل كان معه . . والى جانبه في كل الاحوال :

وقد هزت الشاعر « مفدى زكريا » هذه الرجة ، وحرك نفسه هذا الزلزال ، فقال قصيدة على غرار قصيدة « محمد العيد » بعنوان « الآن ربك أوحى لها » ويبدوها بسبب هذا الزلزال . . فيعزوه الى الاثم والفسق الذي عم هذه الناحية ، هذا الاثم الذي لم تتحمله الارض ، فأخرجت ما عندها من أثقال ، لترمي به الاثمين . وقد سخر البعض من هذا ، فذهب يسأل الارض عن هذه الغضبة ، ولكن كان الاجدر . . ألا تسأل الارض عن هذه الرجة التي رمت الناس في جحيم مهول . . بل كان الاجدر أن يسألوا « ابليس » الذي أوحى لهم بالشر والاثم . فردت الارض ترمي باللهيب المحرق ، والعذاب الماحق ، بوحي من الله تعالى :

هو الاثم زلزل زلزالها فزلزلت الارض زلزالها
وحملها الناس أثقالهم فأخرجت الارض أثقالها
وقال ابن آدم في حقيقته يسألها ساخرا : مالها ؟
فلا تسألوا الارض عن رجة تنسأدى الجحيم وأهوالها
الا ان ابليس أوحى لكم الا ان ربك أوحى لها

هذا هو مطلع القصيدة ، وهو . . . في الواقع . . . مطلع ليس فيه ما يلفت النظر مثل ما رأينا في قصيدة « محمد العيد » التي كانت بدايته التياغا وأنيئا ، وحرقة وألما وكان تعبيرا صادقا عن الناجعة . . باتم معنى للكلمة ، أما مطلع « مفدى زكريا » فقد امتدحاه من آيات قرآنية من سورة « الزلزال » . فليس فيه جديد في الوصف ولا في الاستعارات والأخيلة والمعاني التي يوجبها السياق في مثل هذا الموقف . كما بدا سبب الكارثة

الذى عزاه الى الاثم والفجور . وهذه الفكرة - فى الحق - بسيطة ، اذ هى من التعليقات الساذجة البسيطة ، وكان من حقه أن يتعمق أكثر ، فيبحث عن السبب الحقيقى - عن قوى الطبيعة وظواهرها . ثم يوجه عناية شعبه الى استكشاف غوامض الطبيعة ، ومن ثمة يدعو الى الاخذ بأسباب العلم الصحيح ، والرقى الفكرى الحقيقى . ولا ضير بعد ذلك فى أن يضيف سببا آخر : كالاتم « مثلا » . . . الى تعليقاته ، حتى يجمع بين العقل والقلب ، وبين الواقع والخيال .

وقد أعجبني منه تلك الاستعطافات للطبيعة ، وذلك النداء الحار المخلص : بطلب الرفق ، والعطف على هؤلاء المنكوبين ، هؤلاء الذين جردتهم الطبيعة من كل شيء . فهم : حفاة عراة ، جياع ، يصارعون الموت . فقد فقدوا كل شيء . . . سوى محاجر العيون التى تندب وتبكي اطلال منازلهم التى شردوا منها ، فهم أشبه بالهياكل الهزيلة ، وحتى السماء لم ترحمهم . . . فأخذت تهطل اليوم عليهم مدرارا :

ففى الحى قوم عراة حفاة	جياع . . تصارع آجالها
هم فقاروا كل شيء سوى	محاجر تندب اطلالها
هياكل حتى السماء أرسلت	تطاردها اليوم هوالها

فهذا المنظر الذى يعرك الصخر ، لم يحرك بعض النفوس للبذل والعطاء ولواسة المكروبين ، فحز فى نفس الشاعر أن يشاهد أناسا . . لم يحركوا ساكنا ، ولا بادروا بأعانة مواطنيهم ، فصب عليهم سوط غضبه ، وجحيم ثورته العارمة ، واستنزل عليهم لعنات الرب القوى .

أما أولئك الذين شاركوا شعبهم . . . آلامه ، ووقفوا يواسون الجراح ، ويبذلون ما عندهم . . . فهم : أمل الجزائر ، ان هؤلاء . . . قد استحقوا ثنائه . كما تضرع الى الله أن يعضد جهودهم ويباركها ، لانهم عاهدوا الجزائر على الموت من أجلها ، والدفاع عنها . . . الى آخر رفق :

وقوم اذا جئتهم امسكوا	وشلوا على الدار أقالها
گرام مساريح فى موبقات	جبين المروءة يندى لها
فيالبنات احصى أنفسا	عن الشعب تمسك أهوالها

أما الذين ضمدوا الجراح ، وأعانوا على النائبات ، فلهم الصلوات الطيبات :

ويصلوات اعضدى معشرا	غلبوا لاجزائر أمثالها
وقالوا : سنبقى على عهدنا	وقالوا : نموت ونحيا لها

واذا كان « مفدى زكريا » قاسيا نائرا ساخطا على الذين لم يقفوا مع الشعب . . فالشاعر « العيد » كان هادئا عطوفا ، دعا لهم بالهداية والرفق بهؤلاء الضالين الهالكين . ولعل هذا الاختلاف يرجع الى طبيعة كل من الشعاعين والى فارق السن ، فالشاعر « العيد » شاعر شيخ ، ينظر نظرة الحكماء « ومفدى زكريا » شاب نائر ، ينظر بعقلية الثوار الشبان . وان كنت أفضل قصيدة « العيد » على قصيدة « زكريا » ، للأسباب المتقدمة ، جملة . . لا تفصيلا .

شيء لا الدموع ولا الدماء ، ولا حتى عطفت على الاطفال الصغار الذين لا ذنب لهم :

حتى الطبيعة سادت طعناتها
وتهجمت بقساوة تبغى التضام
لم يثنها عنك الدموع ولا الدماء
لجراحك المشجوبة السبيل
على بقايا النفس والأهوال
كلا .. ولا عطف على الاطفال

ويختم القصيدة « فى النهاية » يستعطف المحسنين ... ليواسوا
اهل هذه البلدة المنكوبة . والقصيدة فى مجموعها : جيدة ، فهي تصوير
رائع للمأساة ، تجعلك تشعر بعطف على « خراطة » ولو لم تعرفها . وهذا
يرجع الى أن الشاعر صاغها : فى قالب جميل ، وعبر عنها : بتعابير موحية
مؤثرة ، بيد أن هناك تعابير مضطربة ، قلقة ، تفسد من جمالها ، وتقلل
من وقعها .. وتأثيرها . ولكنها هنات قليلة .. بالقياس الى ما فيها من
روعة السبك ، وعاطفة انسانية جياشة .

هذه بعض النماذج من الشعر الجزائري الذى عبر فيه عن شعوره
تجاه شعبه ، فشارك : آلامه ، وأحزانه ، وأفراحه ، وأتراحه . ولا أقول
جديدا اذا ما أعلنت بأن الشعر فى الجزائر .. كان للشعب ، يتتبع
خطواته ، ويسجل أحداثه ، فيحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ..
وسيوضح هذا أكثر فى دراستنا المقبلة لهذا الشعر .

فى موكب العروبة

من الخطأ الفاضح : الاعتقاد بأن الشعب الجزائري كان بعيدا عن ركب
العروبة ... حتى قامت الثورة المباركة ، التى أرجعته الى حظيرتها ، بعد
أن كاد يفرق ... الى أذقانه ... فى بحر الاندماج والذوبان فى كيان
فرنسا . وأكثر من هذا خطأ الظن : بأن الشعر كان بعيدا عن موكب
العروبة أيضا .

والحقيقة التى لا يشك فيها أحد ، أن الشعب الجزائري يحس ...
احساسا عميقا ... بعروبه وبقوميته . والدليل على هذا : كفاحه الطويل
من أجل هذه القومية ، ومن أجل لغتها ، وتاريخها ، وآدابها . ولكن كفاحه
كان صامتا ... لم يسمع به أحد . لان الشعب كان معزولا عن العالم فى
معظم الاحيان .

ومن هنا كان احساس البعض بأن الجزائر كانت بعيدة عن العروبة
وعن ركبها الصاعد . ولم تبرز كشعب عربى الا فى السنوات الاخيرة ،
خاصة : بعد الثورة . وهذا ان دل على شيء ... فانما يدل على جهل البعض
بالقومية نفسها وبطبيعتها . فانت تستطيع أن تجرد الانسان من أى شيء
الا من قوميته وجنسيته وذاته وهذا ما جعل فرنسا تخفق ... الاخفاق
الذريع ... فى محاولاتها المستمرة ، التى رمت بها ... الى تجريد
الشعب الجزائري من عروبه ، فحرمت اللغة العربية ، وهى اللحمة التى
تربط الشعب بعروبه وتاريخه . وحاولت مسح هذا التاريخ ... حتى

ينسى الشعب ماضيه ، وماضى آباءه ... وأجداده العرب ، ولكنها لم تصل الى نتيجة ، سوى أنها جعلت الشعب يؤمن « أكثر من ذي قبل » بعروبه وقوميته .

وقد رأينا - فيما مضى من هذه الدراسة - كيف أن الشعب وقف في عناد وقوة يدافع عن عروبه ، ويحارب كل الافكار الهدامة التي أرادت أن تدمجه في قومية أخرى ، وفي جنسية أخرى . وما هذه الثورات الدائمة والانتفاضات المتكررة الا علامة من علامات ايمان الشعب بعروبه وقوميته . فلم يفهم الشعب الجزائري القومية على أنها فلسفة لها أصولها ودعائها ، إنما أحس بها في كيانه . في دمايته . أحس بها في تاريخه الذي ارتبط بتاريخ العرب منذ الفتح الاول ، أحس بها من نبرات هذه اللغة العريضة التي يعبر بها عن انفعالاته وعواطفه ومشاعره كأنسان . أحس بالعروبة لأنه عربي وكفى .

لم يحاول أن يفلسف القومية ، أو يتعمقها ، أو يبحثها ، أو يكتب البحوث عنها ، لأنه يعتبرها شيئاً مفروغاً منه ... لا يختلف فيه اثنان . ففهمه للقومية العربية : فهم ساذج بسيط ، ولكنه - في الوقت نفسه - فهم سليم صادق خالص ، لا يعتريه شك أو ذبذبة .

عبر الشعب الجزائري عن احساسه بقوميته في شتى المناسبات ، عبر على لسان شعرائه ... يشارك العروبة في أفراحها وأثراحها ، يحزن لحزنها ، ويسر لسرورها ... دون أن يرقب جزاء أو شكورا على ذلك . وهذا هو الفهم الصحيح للقومية العربية الصحيحة .

وقد أخطأ البعض - مثل الأديب سعد الله - في ظنه بأن الشعر في الجزائر لم يتعرض للقضايا العامة الا تحت ظروف ووحى من الداخل ، وقد نشر بحث له بمجلة الآداب لشهر ديسمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « تصميم للشعر الجزائري الحديث » جاء فيه ما نصه :

ومن ذلك أنه شعر جزائري ، قليل التعرض للقضايا العامة . ولذلك قلنا : انه قد صور حياة الجزائر ... تصويرا واقعيا صادقا . بحيث تحدث عن جهلها وبؤسها ، وتأخرها . وتحدث عن جمالها ، ومنزلتها ، وامتيازها . وتحدث عن نهضتها ، وحركاتها ، ورجالها .

فاذا ما تناول قضية عامة ، فإن ذلك يوحى من داخل الجزائر ، مثل : استقلال الشعوب ، والحرب ، والنفس ، والموت ، وعلاقة الانسان بالله .

والأديب سعد الله في هذا الرأي - ومثله من يؤيده - مخطئ . الخطأ كله . فالشعر في الجزائر ... كما اعتنى بالقضايا الداخلية ، اعتنى ايضا بالقضايا الخارجية ... وخاصة القومية منها ، لأنه يعتبرها قضية واحدة . وسنرى في بعض القصائد أن هناك تداخلا كبيرا بين الجزائر والعروبة . أي أن الشاعر لا يفصل بين هذه وتلك . ولا يفرق بين الجزائر والعروبة . ثم ما هو مدى هذا الوحي الذي كان يدفع الشعر ليتناول القضايا العامة ؟ فهل هو التحدث عن استقلال الشعوب العربية - مثلا -

أو عن آلامها وأحزانها وكفاحها ؟ هل هذا يعد حديثا عابرا لا صلة له
باحساس الشعب العربي في الجزائر ؟ وما الشعر الا تعبير عن خلجات
الشعب ، وأحاسيسه ... تجاه نفسه ، وتجاه الانسان الذي تربطه به
رابطة الدم ، أو رابطة الانسانية .

وقد تحدث الشعر في الجزائر ، عن « هيروشيما » وعن شعوب
افريقية وآسيوية ، ولولا خوف الاطالة : لنملت نماذج لذلك .

وهذه قضايا العروبة تشهد بما قدمنا . ونبدأ بقضية « فلسطين »
أم القضايا ، والمشكلة الاولى بالنسبة للشعب العربي ... منذ الاستداء
الصهيوني الاستعماري على ارضها الطاهرة . ونحن نتحدث عن موقف
الشعب نحو هذه القضية ، فذلك مما لا يجهله أحد . وانما أنقل
احساس هذا الشعب وعواطفه تجاه اخوانه عرب فلسطين على لسان
شعراته .

فالشاعر « محمد العيد » أحس بالظلم والجرم الفادح ، عندما
وقف الاستعمار يؤيد الصهيونية في عام ١٩٤٨ ليقتطع لها جزءا من
جسم الامة العربية ، ويفرستها « كشوكة » في حلق الشعب العربي
فأحل بالقانون جرما فادحا ، وأذل دين الله للدينار : -

أن الذي زعم العدالة شرعة	أذى الأئمة في رضى الاحبار
ولا هي العمومة في وشائج نسلها	وسنطا على الاجوار بالاجوار
وأحل بالتسانون جرما فادحا	وأذل دين الله للدينار

ولكن هذا الفاضب المعتدى ، الذي جار على حقوق العرب ،
سيأتيه يوم . يوم يثور فيه العربي لكرامته ... فينتقم لها أشد انتقام .
لان عدوه الفاضب أعرض عن السلام . فلا بد له من حرب تقضى عليه
وعلى عدوانه . ولا يظن أن صبحه طالع ، فالبدر قد يخدع الساري
وسيرى : أن أمانيه كاذبة منهارة ، لانها بنيت على أساس منهار ...
لانها بنيت على الظلم ، وما بنى على الظلم ... لا يدوم ولا يبقى ،
فالقديس « يادى » لابن القديس ، لا لمتشرد « مثك » صهيوني مهاجر
أفاق غادر :

قل لابن صهيون اغتررت فلاتجر	ان ابن يعرب ناهض للشار
اعرضت عن خطط السلام موليا	فوقعت منها في خطوط النار
لا تحسبن بان صبحك طالع	فالبدر ويحك خادع للسار
سترى أمانيك التي شيدتها	منهارة مع ركنك المنهار
القديس لابن القديس لا لمتشرد	متصهين ومهـاجـر غدار

وهذه صرخات أخرى لشعراء شبان ، كان احساسهم بمأساة
فلسطين ... مثل احساسهم بلل شعبهم ووطنهم . يقول الشاعر
« بوشامة » في قصيدة بعنوان « صوت الجهاد » يدعو فيها العرب
الى الجهاد والنضال من أجل استرداد فلسطين . أرض الهدى ،
هذه الأرض الطاهرة التي نهبها العدو ، فهي تنادى السبب العربي
الى الجهاد والكفاح :

لصنون الدماء وفك البيلاد
تنادى الجهاد الجهاد الجهاد
ولا ق المنايا بساح الفداء
تنادى الجهاد الجهاد الجهاد

تقدم بحزم قوى الفؤاد
فلسطين أرض المجد والكرامة
فتى العرب هيا قلب النداء
فلسطين فى النار نهب الغدا

وله قصيدة أخرى يحث فيها العرب على الوقوف الى جانب فلسطين والموت من أجلها والا فليترقبوا الشقاء والعار الابدى تحت حكم اليهود ، الذين لا يعرفون سوى اقتراف الجرائم . ويستنفر الجزائري الى الكفاح من أجل فلسطين ، ويختتمها بالترحم على أرواح الشهداء ، وهى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول الشاعر : -

ساء ماذا ترجون غير التفانى
ز أو العيش فى الشقا والهوان
ت فلسطينا فى عالم الانسان
منكرا فى التخريب للعمران
فى ميادين كل حرب عسوان
وفلسطين فى الجحيم تمسانى
بى وفصل التحرير والاحسان
فى سبيل الاسلام والوطن

ايها العرب امة المجد والبطا
انه الموت فى الكرامة والعظمة
تحت حكم اليهود اخبث من عا
والد الخصوم ابلا بسلا
اين ذاك الجزائري المجلى
كيف ترخصون عيش امن وخير
هل نسيتم عهد الاخوة والائسر
رحم الله كل حر شهيد

وكما اسلفت فى هذا الحديث : ان هناك قصائد تتداخل فيها قضايا العروبة . ليتحدث الشاعر فيها عن الجزائر وعن فلسطين وعن العروبة لا يفرق بينها أبدا .

فالشاعر « عبد الكريم العقون » فى قصيدته (بنى العرب هذا يومكم) يبدأ بالحديث عن الجزائر التى تتجمع فوقها السحب . ولكنها سحب عابرة ، وسيأتى يوم تضحك فيه ، وتحظى بأملها العذب ، فتخلع عنها اغلال الدل والمهانة ، وتحيا عزيزة مكرمة ، وتجاهد أعداءها جهادا مريرا اليس الشعب الجزائري من نسل يعرب ، لقد تحركت نفوس العرب فثارت دماء العروبة فيها . وستشعلها ثورة عربية ترمى بأعدائها فى الجحيم . وسيصلى شياطين الطفاة شواظا من نيران . هذه الثورة العربية التى ستستمر حتى تطهر أرضهم من الدخلاء :

فيغدو ضحوكنا مشرق الافق كالغرب
وكم من جنى عذب لدى الامل العذب
ويجلو ظلام الظلم بالزار والوثب
سريع الخطى للمكرمات والذنب
ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
نفوسا فثارت تطير مع السرب
بجيش همام كالصواعق منضرب
جرىء الى واسع الطعن والضرب
شواظا من النيران كالوابل السكب

سينقشع الغيم المخيم عن شمسي
ويحظى بأمال عذاب جميلة
ويخضع اغلالا ثقلا يجبرها
يؤمل ان يحييا عززا مظفرا
يجاهد أعداء الحقيقة جهده
دماء بنى العرب استفاقت فايقظت
لقد أوقدوها ثورة عسرية
شديد المراس فى النوازل مدرب
سيصلى شياطين الطفاة بجمعهم

ثم يوجه حديثه الى دولة اسرائيل المزعومة : -
لقد جهلت (صهيون) واشتط حلمها بدولة (اسرائيل) في موطن العرب
 ثم يتجه الى العرب الذين فرضت عليهم اسرائيل فرضا فيدعوهم
 الى ازالتها من الوجود :

الا فاجعلوها طعمة لأجيدها فليسوا باهل للشبات لدى الخطب
 ويوصي في النهاية الشعب الجزائري بأن يتجه الى الشرق العربي،
 ويلتفت مع اشقائه حول جامعة الدول العربية ، يحثه على الاعتصام
 بمبادئها ، ويوصيه بأن يكون جنديا من جنودها ، فهي رمز الوحدة ،
 وحدة العروبة .. التي ترجع الى سلامة واحدة ، هي سلامة العرب ،
 وعبد مناف ، وكعب : -

ويشعب ول الشرق وجهك واعتبر بجسامة العرب الموحدة الركب
فثق بمبادئها وكن من جنودها وخض معها الاحداث جنباً الى جنب
وما نحن الا من سلالة يعرب وعبد مناف جنودنا وبنو كعب

ولكن الشاعر « أبو شامة » يوجه حديثه الى العرب جميعا ، يذكرهم
 بماضيهم ، ماضي أمية وتغلب ، ويدعوهم الى أن يشوروا على الظلم، مثل
 الجدود الذين رضع لهم الغرب في فترة من الفترات ، واعترف بزعامتهم
 وصوتهم . هؤلاء الجدود الذين شادوا وبنوا صروحا شامخات ، وأثروا
 بالعجب العجيب ، وكانوا هداة ومرشدين للضالين الحيارى :

أراكم نسيتم عهدا مضت عهود (أمية) أو (تغلب)
فشوروا على الظلم مثل جدود عنا لهم الغرب في الاحتب
فكم حطموها معتلا شامخا وشادوا من السؤدد الأعجب
وكم ارشدوا حائرا تائها يتلفز من الشك أو سبب

ألم يكف الغرب مايشاهدونه من تجمع الغرب واتحاده ضدهم .
 ألم تكن فلسطين درسا بليغا .. يذكرنا ويعظنا . ولكن : اذا كان الغرب
 قد اغتر بقوته .. فستشرق شمس المشرق . وسيرجع عهد الاخاء ،
 ويجتمع شمل العروبة في وحدة قوية شاملة . فحسب الذي يتجاهل
 هذا ... حسبه هذه اللغة التي هي اسرة قوية ، ولحمة متينة .
 وكذلك الدين القويم .. دين محمد صلى الله عليه وسلم .

أرى الغرب قد جمعوا شملهم على الشرق والشرق مثل الصبي
فدرس فلسطين درس بايع يذكرونا الحلف في موكب
رويسك يا غرب لا تفتقر فشمس بني الشرق لم تغرب
وأنا سنرجع عهد الاخاء ويجمع شمل بني يعرب
فحسبك بالفضاد من نسبة اذا ما انتسبنا ودين النبي

أليس هذا شعور العربي المخلص نحو القومية العربية الحققة ؟
 ليست هذه صرخات من عربي يتألم لما لحق العروبة من اضهاد على
 أيدي الغرب ، يستفزها للعمل من أجل الوحدة والاتحاد ، ومن أجل
 الكرامة والعزة ؟ ألم يعبر الشاعر في الجزائر عن شعور الشعب
 الجزائري تجاه القومية أصدق تعبير ؟

وأختم هذه الكلمة عن فلسطين بمقطوعة من قصيدة الشاعر « أحمد سحنون » يحث فيها هو الآخر زعماء الشرق على ضم الصفوف ، ويدعو الشعراء إلى أن يكونوا لسان شعوبهم .. فيوقظوها ، ويشجعوها . فالشعر ثورة ، ولكنها تحمل القلم .. لا السيف ، ويحث الجيش العربي المظفر على خوض المعركة حتى النصر ، وحتى يطرد أعداء فلسطين ، أعداء العروبة :

موطىء اقدام النبيين والرسائل وارض نبي الوحي بوركت من نسل
فذاك الفدا لا تقبلى قسمة العدى وللموت سبرى لا تبينى على الذل

الى ان يقول موجهها خطابه للعرب جميعا : -

ويا زعماء الشرق ضمهوا صفوفكم ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمل
لقد جد جد العرب فاقتحموا الوغى ولا تدفصوا جد الحوادث بالوزل
ويا شعراء الضاد حثو شعوبكم بشعر يداويها من الجبن والبخل
فما الشعر الا ثورة غير انهم (توصل بلا كف وتسعى بلا رجل)
ويا ايها الجيش الذى رجع ذكره قلوب العدى باكر فلسطين كالويل
سترجع منشور اللواء مظفرا ويرجع أعداء (النبيين) بالتكل

أما أرض الكنانة فلها فى قلوب الجزائريين مكانة خاصة ، لقد كانوا - وما زالوا - يعقون عليها الأمل فى الدفاع عن العروبة ، والحفاظ على كرامتها . وكان الشعب الجزائرى يرقب الأحداث التى تجرى فى هذه الأرض ... العزيرة على نفسه ، كان يرقبها بيقظة وأنباه شديدين فكان يتألم عندما تتعرض لاي خطر . ويفرح عندما تحقق انتصارا ، وقد عبر عن هذا شعراؤها . ويطول الحديث ، لو أردنا أو نورد ما قيل فى هذا الموضوع ، ولكننى سأكتفى ببعض النماذج كمثال ليس غير .

عندما وقع الاعتداء على القنال ، أى عندما قامت مصر بشن هجومها على أعداء البلاد فى القنال عام ١٩٥٢ وأخذ الاسـتعمار الانجليزى يقتل ويدمر ويعتدى دون وازع من ضمير ، عندما وقع هذا أحس الشعب الجزائرى بأنه قد مس هو الآخر . وشعر بأن جزءا من العروبة ، بل قلبها النابض .. قد أهين فتألم ، ونقل ألمه شعراؤه . فهذا محمد العبد عبر عن ألم الشعب الجزائرى عندما اعتدى الانجليز على أرض العروبة . وأخذ يحث الشعب العربى فى مصر للزحف على الأعداء ، وأن يشنها حربا يثار بها لكرامته ، ويحث مصر أن تجعل كتائبها وجيوشها من الجند لا من الورق ، وأن تسفح الدم لا المداد ، ولن تقف وحدها ، فالجزائر والمغرب العربى يهتف معها ويؤازرها ، وأنه باق على عهد العروبة .. ولن يتحول عنها أبدا :

أغار على السكناة شد عاد فقل يا مصر حى على الجهاد
أعدى كل بأسك واستعدى لرد الزاحفين بلا اتسـداد
امن شـكر الصنيعة ان يجازوا بيض صفاحهم بيض الايادى
فشنيها عليهم حـرب نار وشبيها لظى ذات اتقـساد
وخطيهم كتائب غير كتب وصحفا من دم لا من مداد
هتافات (الشـبـمال) اليك تعاو صدى وعهوده لك كالعهد

كما شارك الشعب والشعر في فرحة الوادي بيوم الجلاء ، يوم ان عقدت معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ فقد فرح الشعب الجزائري بجلاء الجيوش الاجنبية عن أرض الكنانة ، وانجلي الظلم عن الوادي الخصيب .. ثمما ينجلي الليل البهيم يعقبه فجر مشرق حبيب .. بعد أن قضى سبعين سنة جائما في هذه الأرض يمتص وينهب خيراتها . ولكن بعد أن عانى من اهلها الابطال زمانا . أرغموه في النهاية على أن يخرج منها ذليلا حقيرا : -

انجلي الظالم عن (الوادي)الخصيب كأنجلاء الليل عن فجر حبيب
فوق سبعين قضائها جائما في ربوع مسماها منه الهيب
فعنا فيها زمانا خائرا ثم ولي جانحها للفسروب

ويستمر الشاعر « عبد الكريم العقون » في فرحته التي هي فرحة الشعب الجزائري ، ويخاطب العرب في مصر الذين تحرروا من القيد ، يستنجد بهم لوطنه « الجزائر المعبدة » التي لا يسعها الا أن تفرح مع مصر :

كأي من فؤاد هنسا في طرب راقص النبا العندوب
(فاذكرونا مثل ذكرانا لكم) ايها الابطال انا في كرب
من دخیل لج في طفيلانه سد في اوجهنسا كل الدروب
نحن في الخطب سواء هل لنسا منكم عون على دفع الخطوب ؟

وقد عبر الشعب عن فرحة الشعب باستقلال السودان وتحررها من حكم الانجليز ، وقد نقل هذه الفرحة الشاعر الكبير « محمد العيد » في قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول « العيد » :

فوز سرت بحسديته الركب فالشرق مفتبط به جسدلان
والسبححة البيضاء يعلى بشرها وآو اذدوت بحقوقها الأديان
والنيل يجري صاخبا ومصفا طريا فنرقص حوله الشيطان
وينسج العروبة يهتفون لركب في النيل ابصر ركب العربان
ما اسعد السودان باستقلاله فالיום يرفع رأسه السودان

ويستمر الشاعر في وصفه المبدع لفرحة الجزائر باستقلال السودان ، ويربط بين الحاضر والماضي مذكرا بعهد الآباء والجدود وامجاد العروبة الخالدة . في اسلوب يتدفق قوة وسلاسة وحلاوة . ولكن بالرغم من شعوره بهذه الفرحة الفامرة ، لم ينس آلام شعبه وأحزانه وما يعاني من الاجنبى واستعمار الظالم ، ويتساءل عن اليوم الذي تتحرر فيه الجزائر وترى الحرية هي الاخرى .. وتعم الفرحة الشعب العربى جميعا : -

من مبلغ السودان عننا انا شيع له بشعورنا خالان
نتبادل القبلات باستقلاله فرحا وان طافت بنا الاحزان
متسائلين عن الجزائر هل دنا تحريرها أم حظها الحرمان ؟
ومتى تقرر كالشعوب مضيرها فتد اقتضى تقريره الايمان ؟
ومتى يكف عن الخضوع خصوصها او يرعوى محتلمها الغضبان ؟
ومتى تفوز بنفسمة استقلالها لقد استقلت دونها الاوطان ؟

وكما تحدث الشعر عن الشرق العربي ، فقد تحدث كثيرا عن المغرب العربي .. تحدث عن أفراحه وأتراحه .. تحدث عن كفاحه وعن أحداثه ، من أبطاله وزعمائه .. تحدث عن « الزعيم عمر المختار » الشهير بليبيا ، وعن « محمد الخامس » وعن « المنصف باي » ، وعن غيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للمغرب العربي .. هذا المغرب .. الذي هو دار الجميع ، هذه الدار التي يباركها « محمد العيد » والتي كانت - وما تزال - ملاذ الجميع ، بالرغم من الفرقة التي زرعتها أعداء المغرب العربي ، هذه الفرقة التي ستزول حتما بالعلاج الحاسم .. بالوحدة والاتحاد :-

بورك المغرب من دار لنسا	بواتنا من مغانيهنا كنسانا
نحن فيها أسرة واحدة	فتت الفرقة في اعضبادنا
اخوة ديننا وجنسنا ولساننا	ان منها أبدا كل ضئنانا
عالميوها باتحاد جامع	ناجع المفعول يبقي الشئنانا
فمن الله به العز لنسا	ونفى الذلة عنا والهوانا

وبعد فهذه بعض النماذج التي نقلتها للمثال .. لا على سبيل الحصر .. على أن الشعر في الجزائر كان لا يفتأ يعبر عن احساسه نحو قوميته وعروبيته ، ونحو اخوانه وأشقائه العرب . ويكاد الشعر في الجزائر لم يترك قطرا من الأقطار العربية الا ويشاركه في آلامه ، وفي أحلامه وأفراحه . ولا يسمح المقام بضرب الامثلة على ذلك .. فمن شاء الاطلاع فليرجع الى المصادر التي ذكرناها سابقا ، فسيجد فيها أكثر مما ذكرنا . سيجد أن احساس العربي في الجزائر بقوميته .. صادق مخلص ، وأنه لم يتأخر لحظة واحدة - عن موكب العروبة .. بل انه يسير معها .. أن لم يكن في المقدمة ، وسيبقى على العهد .. ما دامت دماء العروبة الحرة تجري في دمه ، وحتى يرث الله الارض ومن عليها .

بين أحضان الطبيعة

الذي يلفت النظر حقا في الشعر الجزائري ، هو أنه قليل الحديث عن الطبيعة ، بالرغم من أن الجزائر .. تزخر بشتى المناظر الطبيعية الخلابة .. تزخر بشلالاتها الرائعة ، وبغاباتها التي تتناثر فيها المروج الخضراء الجميلة . وتتفجر فيها العيون المتدفقة الشارة ، وترتفع في سمائها الأشجار المختلفة من بلوط ، وسندبان ، وسرو ، إلى الزيتون ، والنخيل ، وعرائس الكروم . أما الجبال الشاهقة : فحدث عنها ولا حرج ، ولا أبالغ اذا قلت أن هناك مناظر طبيعية لا توجد .. حتى .. في أوربا التي اشتهرت بمناظرها البديعة . ويعرف هذا كل من زار الجزائر وتجول في ربوعها شرقا وغربا . ولست أدري : ما السبب الذي جعل شعراءنا لا يتفنون بهذه المناظر ولا يصفونها ؟

ولعل اهتمامهم بمشكلات الشعب .. هو الذي جلب انتباههم ، وجعلهم لا يلتفتون إلى النواحي الأخرى .. وأن كنت لا أرى هذا مبررا لعدم أكثراتهم بهذه الناحية .. إذ من الواضح جدا : أنه في إمكان

الشاعر الحق ، ان يشير اهتمام المواطن .. بقصيدة يتحدث فيها عن
منظر طبيعي في وطنه ، فيحجب اليه هذا الوطن . ويجعله يحس بالفخر
والاعتزاز ، ويشعر بأهمية بلاده .. وما يحوى من خيرات ، ومناظر
جميلة .

ومع هذا النقص الخطير ، فهناك البعض من الشعراء الذين
حاولوا .. في قصائد قليلة .. ان يتداركوا هذا النقص الكبير الذى
لا أحد له مبررا أصلا .

هناك من تحدث عن الصحراء ، وعن رمالها ، ونخيلها ، وحياتها
النساذجة البريئة .. مثل الشاعرين « أحمد الباتنى » و « أحمد سحنون » .
وهناك من تحدث عن الربيع وازهاره ، وعن ابحر وزرقة مائه ، وعن
النهر وخير مائه .. فالباتنى فى قصيدته « لحن من الصحراء » قد وفق
الى أبعد حد . فقد فتنته الصحراء برمالها الذهبية الفاتنة ، ونخيلها ذى
الجنى الطيب .. الذى يتناثر فى هذه الصحراء المترامية الاطراف ،
وكانها بحر يمزج بعضه فى بعض .. هذا النخيل الذى يرتفع كثيرا فى
كبرياء وشموخ ، وكان رؤوسه صقور تجوب آفاقا عالية ، حاملة فى
مخالبها السمحة جنى صيد يباهى به الثريا :

بسـط الرمل راحتيه وحيا واستوى فى الفضاء يرفع جيـدا فكان النخيل فى البـيـد بحر حائـقات ، كان فى كل رأس هز فى المخابـر الكـريم جنى با حائمات أسرابه فوق سـجاج	وحيا النخل طيبه القدسيـا مستطيلا يصوع مسـكا زكيا ذو سوار يخوض بحرا حـيـيا جنح صقر يجوب أفقا عـليـيا ت يباهى بها جناـه الثريا لا شراع به لفـوص تهـيا
----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

ولكن هذه الصحراء التى سحرته .. وخابت لبه ، قد أثارت فى
نفسه ذكريات عزيزة ، ذكريات .. لا يمكن ان ينساها الغربى أينما
كان ، وحيشما حل . فالصحراء ذكرت الشاعر بمجد آبائه الاولين ،الذين
انطلقوا منها ليرفعوا علم النضال ، وينيروا الطريق للانسانية التى
سعدت فترة بهذا القبس المنير المضيء ، وهى من ثم : موطن الوحي ،
ومهبط الالهام ، ومواطن الجدود الاباة العظام :

موطن الوحي لا أخالك الا من لآلى ثراك ينبثق النـو كنت يا موطن الجدود رحيمـا	منبيع السحر سرمدنا ابديا ر فيكسـو الحـياة معنى ثريا بينيك الاباة .. كنت سـخيا
----------------------------------------------------------------------------------	-------------------------------------------------------------------------------------

ثم يسترسل الشاعر يصف حياة سكان الصحراء البدو الرحل ..
يصف رحيلهم ، وسمهم بالليل ، وغناء الرعاة .. وقد سحرته هذه
النفمة التى تنبعث من الناي فى رقة وعدوبة ، ثم هذا النداء فى البكور ،
هذا الاذان الذى يوقظ النائمين يدموهم الى الصلاة .. ولا يسمح
المقام بنقل القصيدة كلها ، فهى طويلة مثل قصائد الشاعر الاخرى ..
والحقيقة ان الباتنى يملك قدرة عجيبة ، وطاقـة كبيرة ، عندما يصف ..
أو يناجى الكون ، ويتأمل الحياة والاحياء . وله قصائد رائعة ، مثل :

« سراييل الحياة » و « عبادة الحب » وهو طويل النفس ، سلس التعبير ، وإن كان مقلا في إنتاجه .

وهناك شاعر آخر تحدث عن الصحراء ، شاعر من الشيوخ ، هو :
« أحمد سحنون » فقد تحدث عن الصحراء في قصيدة بعنوان
« الصحراء » وحديث سحنون عن الصحراء . . حديث عادي يصف
الصحراء وصفا ماديا ويوازن بينها وبين المدينة ، ويفضلها على المدينة .
ومطلع القصيدة :

أصحراء أنت الكون بل أنت أكبر وشخصك في عيني أبهى وأبهى

وبالرغم من أن الشاعر حاول أن يصف الصحراء ، ومناظرها ،
وحياة سكانها ، إلا أنه لم يستطع أن ينقل لنا احساسه وحببه للصحراء ،
ويجعلنا نتأثر بل نشاركه احساسه وحببه لها . وقد أفلح « البائي »
في هذا بما حشد في قصيدته من صور تعبيرية جميلة ، وبما أضفاه على
الصحراء من خيال شفاف ، وبما اشاع في قصيدته من حنان وعطف
يبدو في هذه الألفاظ الموسيقية الجميلة ، التي تجعلك تحب الصحراء
دون أن بدعوك الشاعر الى حبها جهرة ، مثلما فعل « سحنون » الذي
يقول :

أنا ابنك قد لقنت حيك ناشئا وإنى على ذا الحب لا أتفسر
وشاعرك البائي علاك ومن غدا بهجرك في الدنيا يتيسر ويفسر

وهناك شاعر آخر قد فتنه الصحراء ، وتغنى بجمالها ، حتى
دفعه حبه للصحراء أن جعل عنوان ديوانه « الصحراء » وهو ديوان لم
ير النور بعد . . فما زال تحت الطبع . . على ما اعتقد . وهذا الشاعر
هو الاخضر السائحى الكبير . وهو الآن بالجزائر العاصمة ، ومن سوء
الحظ أننى لم أتمكن من أن أصحب معى بعض قصائده ، ولعله الشاعر
الوحيد الذى تغنى في شعره بمناظر الجزائر الخلابة .

والجدير بالملاحظة : أن الشاعر الكبير « مفدى زكريا » هو الآخر
له قصيدة في الصحراء . . ولكنها قيلت بعد الثورة ، وسنعرض لها في
الوقت المناسب ، لأنها من الشعر الثورى الذى أفردنا له فصلا آخر . .
وهذه في الواقع ظاهرة تسترعى النظر فى الشعر الجزائرى . . . ظاهرة
الاعتناء بالصحراء والحديث عنها . ولعل السبب يرجع الى الحنين
للماضى . . الى الصحراء التى أنجبت محمدا الرسول الأعظم . . وأنجبت
خلفاءه ، وأبطال العروبة . . والاسلام . أو ربما يرجع الى
الصحراء نفسها التى تفرى بالحديث عنها ، لما فيها من حياة ساذجة
سلسة حلوة . . تدعوك الى حبها ، والتغنى بمناظرها الجميلة
الساحرة .

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد فتنوا بالصحراء . . فالشاعر « العقون »
قد فتن بالبحر والنهر والريبع . . فالشاعر « العقون » ضاق ذات
يوم بالحياة والاحياء ، فلاذ بالبحر يثبه همومه وأحزانه :

هانا اليسوم قد وقفت أناجيب ك يا بحر فاستمع لنشبيدى

ويستمر الشاعر يشكو من الحياة والاحياء ، ويبث البحر احزانه وآلامه ، ثم يصف البحر وصفا رائعا جميلا .. هذا البحر الذي هو مرغى الخيال ، والمورد الخصب لهذا الخيال . بل انه فوق كل وصف وكل حمد .. لانه مفتون بالغيد اذا ما جئته يوما .. عازيات باديات النهود ، يعبثن بمائه الازرق الذي يغريهن بالعبث وهن في نشوة من حسنه الساحر .. انه يسحرهن بصفائه وفتنته :

انت مرغى الخيال مورده الخصـ	ب وان كنت فوق كل الحدود
انت مغرى بالغيد ان جئن يوما	عازيات وباديات النهود
عابثات بهائك الازرق المفـ	رى نشاوى بحسبك المعبود
يختلين فيك مرآة سـحر	شع في عمقها حلى كالعقود

والقصيدة كلها تسير على هذا النسق الذي يخلو من حرارة العاطفة . ومطلعها ضعيف جدا . فقد كان الاجدر بالشاعر . ان يتجنب هذه الهاء التي لا يصح مطلقا ان يبدأ بها شاعر قصيدة في وصف منظر طبيعي مهما كان . انما تصلح للمنبر وايقاظ الرقود . ولكن الشاعر في قصيدته « في مولد الربيع » قد تدارك هذا التقصير ، وسجل احساسه بمولد الربيع وقدمه .. في نفس هادئ محبب ، وفي هدوء جميل . ومن ذا الذي لا يطرب لقدم الربيع ، ولا تستخفه النشوة الحاملة عندما يشاهد الطبيعة .. وقد اكتست ثوبا قشيبا ، ودبت الحياة .. في الحياة والاحياء ، على السواء . انه شهر الجمال والشباب :

قد بدا البشر من محيا الربيع	فازدهى الكون بالجمال البديع
مد قراءى للناظرين سـنائه	خف كل في نشوة ونزوع
يا له منظرًا يحرك اوتا	ر فؤاد يهتز للتوقيع

واذا كان الناس يبتهجون بقدوم الربيع ، ويسرون لقدمه . فكذلك الطبيعة .. نفسها .. تحس بجماله . فالروابي قد رفلت في حلل الجمال الوديع ، ولبست برودا قشيبه .. جعلتها تخطر في دلال محبب للجميع .. لبست كل هذا الجمال بعد عرى اصابها ، ورياح هبوب قد ازلت عنها حللها القشيبه . ولكنها قد استردتها في الربيع .. وهي مزهوه ، وعليها بسمه ساحرة .. فباتت تسحر النفوس التي تهشق الجمال :

والروابي قد اسفرت عن وجوه	زائها منظر الجمال الوديع
اكتست بردها القشيب وتاهت	في دلال محبب للجميع
بمسد عرى اصابها ورياح	لفحتها وذلة وخشوع
فلبست مزهوه وعابها	بسمة من دموع غيث مريع
وغدت تسحر النفوس بوشى	ناتق .. بجلال سر منيع

واحسن الاحياء أيضا بجمال الربيع ، ودبت الحركة في هذه الفراشات الهائمة على الزهور ، تداعب ثغرها في بهجة وولوع ، طائرات سابحات مع النسيم ، تهمس للندى وللزروع ، غارات في حلمها اللذيذ ، تنشر العفة والصفاء والطهر والأمناني فهي كالربيع تماما .. وليست الفراشات وحدها التي استخفها الفرح فانتشت بالربيع . انه

يشساركها أيضا . . هذا القطيع من الغنم الذى انتشى . . هو الآخر
بهذا الدحن الشجى ، الذى ينطلق من أرغن رعاة القطيع . . يردد أحلام
الشباب ، وأمانى الرعاة . انه نغم حلو يفعم النفوس سرورا ، وهو
أشهى الى النفس ، وأوقع فى الأذن . . من أى صوت آخر . . كل القلوب
تهفو اليه ، وتحن شوقا الى الإصغاء اليه . . فالربيع . . يعسد كل
هذا . . يلهم النفوس ، ويبعث فيها الإحساس بالحياة . فياليت لم
يمل الى التوديع :

والفراشات حائحات على الزهر
ساجحات مع النسسيم المندى
غارقات فى حلمها تنثر العفّة
والقطيع انتشى بلحن شجى
نغما يفعم النفوس سرورا
كل قلب اليه ينبض شوقا
لأعدمت ((الربيع)) ملهم قلبى

و يداعبن ثغره فى ولوع
هامسات الى الندى والزرع
والطهر والمنى . . كالربيع . .
قد تغنى به رعاة السطى
هو أشهى من صوت كل سجع
وهيأما كومض برق لموع
ليته لم يمل الى التوديع

ولعل قصيدة « الشاعر » فى النهر بمسقط رأسه « برج الغدين »
خير ما يعصم من شاعريته وقدرته على الوصف . . فقد تغنى فيها ،
بل استرجع فيها ذكريات طفولته ، وكيف قضاه على هذا النهر الذى
عاد اليه بعد غيبة ، وهو أشد ظما الى أن يمتع نفسه بمنظره الجميل :

قد عدت للنهر الحبيب ظامنا أطفى الزفير

متسليا بجماله الأخاذ أنصت للخير

هذا النهر الذى يذكره بأيام صباه ، وعهد الطفولة المرحّة . فقد
قضى فيه يوما يسترجع ماضيه القصير . . قضاه فوق المروج الأخضر ،
ما بين الحشائش والزهور . . ليحيى به عهدا مضى ، وليجسد أيام
طفولته العزيزة .

وقضيته يوما جميلا من مدى العمر القصير
فوق المروج الأخضر ما بين الحشائش والزهور
أحيى عهدا عذبة قضيتها الطفل الفير

لقد كان فى طفولته يشدو كالطيور ، ويفرد منتشيا بجمال هذا
النهر . . ويروح يعبث بمياهه الجارية ، وبزهوره المتخضلة الجميلة ،
وتسحره الغابات التى تمتد على جانبيه النهر . . هادئة ساكنة ، ومن
حولها : هذه الجبال الشاهقات التى تغمر النفس بهجة وغبطة ، وهو فى
كل ذلك : يصفى الى هذه الطيور التى ترتل آيات الجمال . . ويشم
معها نوار الخمائل حين تعبق بعبرها الفواح . ثم يتابع هذه الأفراخ فى
أشجارها ، وفى أعشاشها ، يبحث عن بيضها فى كل مكان . . وكثيرا ما
قلد الشاه فى ثغائها ، أو النسيور فى صغيرها . . وهو يستمع الى رجع
صدى صوته كيف تردده الكهف ، ويمضى : يعسد كل هذا . . فيطلق
آهة يتحسر فيها على ماضيه مع هذا النهر الجميل :

أشدو كاطيار نشاوى بالأصائل والبكور
وأروح أعبت بالمياه الجارية وبالزهور



General Organization of the Algerian Writers
الجمعية العامة للكتاب الجزائريين

واظل في الغابات بين هدونها الساجي الشعر
بين الجبال الشاهقات أعيش مفتظا قرير
أصفي إلى ترتيل آيات الجمال مع الطيور
وأشم نوار الضمائل حين تعبق بالهجير
وأتابع الأقراخ في أشجارها أو في الوكور
وأبحث عن بيض الطيور لدى المغاور والوعور
أحكي ثغاء الشاة أو أحكي الصغير مع النسور
وصدى الكهوف مع الجداول والفراغ إذا يطير
أمضي لتحقيق الأماني لا أبالي بالفتور
أه على تلك الليالي قد مضت ليست تحور

هذه بعض النماذج لشعرائنا في وصف الطبيعة التي لم ينأوا بين
أحضانها ، وإنما حيوها من بعيد ، تحية رقيقة ، محتشمة . وكان من
حقهم أن يمتزجوا بها ويكشفوا جمالها الساحر ، ويبرهنوا على
إحساسهم بجمال الطبيعة في أرض الجزائر الساحرة . . ولكن : لسبب
أو لآخر . . لم يفوا هذه الناحية حقها ، ولعالمهم في المستقبل . . يتداركون
هذا الجانب الهام الذي يستحق منهم كل العناية ، وكل الاهتمام ،
فيفتحون بذلك آفاقا جديدة في الشعر الجزائري ، الذي مازال يدور حول
نفسه ، دون أن ينطلق إلى الآفاق الرحبة الواسعة .

الارهاص الثوري

ربما لا يعرف الكثير من الناس ، أن الشعر الجزائري . . قد
أرخص بالثورة ، وتكهن بها ، بل : ودعا إليها . . بصراحة . . في أغلب
الأحيان ، ورمز إليها في بعض الأحيان الأخرى .

وانه لمن أغرب وثبات الخيال في هذا الشعر : أن يتكهن حتى بمكان
الثورة ، وبانطلاقها من الجبال .

أن المرء ليقف حائرا أمام هذه الومضة الخاطفة في الشعر
الجزائري . . أن الشعر يتكهن بالثورة ، ويعين لها الجبال . . كمنطلق
ومركز للانفجار . .

ربما يكون الشعر قد رأى في الجبال رمزا للقوة والمنعة . ورأى
فيها الحصن المتين الذي يمكن أن يلوذ به الثوار في يوم ما . وقد
يكون وثبة خيال جرى . . ولكنها . . على أية حال . . كانت صادقة
لقد أيدها الواقع . . فانطلقت الثورة من الجبال ، وحققت أحلام
الشعراء . . بعد تكهناتهم وارهاساتهم . . بزمن طويل .

ولعل أول قصيدة ، أو أول نشيد ، قد تكهن بذلك ، هو نشيد
« من جبالنا » . ويبدو أنه ظهر أعقاب مأساة الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ ،
بعد ملك المجزرة الكبرى التي ذهب ضحيتها أكثر من ٤٥ ألف نسمة
في ظرف ٢٤ ساعة . . ظهر هذا النشيد فجأة ، وردده القلوب
المتعطشة إلى الحرية والاستقلال ، ولم يظهر قائله . ولا شك أنه معروف
للجميع . فقد حفظ هذا النشيد . . الكبير والصغير ، وأخلدوه رمزا

للنضال ، ينشدونه فى كل مناسبة وطنية ، وفى كل اجتماع .. وفيه
دعوة صريحة الى الثورة : والى التحرر ، ومطلعه هو :-

من جبالنا طلع صوت الاحرار ينشادينا للاستقلال
ينشادينا للاستقلال لاستقلال وطننا

وفيه دعوة جهيرة الى التضحية من اجل الوطن وحرية ..
التضحية بكل غال ونفيس من اجل شرف الوطن :

تضحياتنا للوطن خسير من الحسنية
أضحي بحياتى وبميتالى عيسى

هذا الوطن الذى يستحق كل شيء .. يستحق الحب العميق ،
الحب الذى يفنى فيه الفرد . ويسئلو كل ما فى الحياة .. لان حب
الوطن أغلى مما فى الحياة من لذائذ وشهوات :

يا بللادى يا بللادى انا لا أهوى سواك
قد سلا الدنيا فؤادى وتفانى فى هواك

هذه البلاد التى لها تاريخ مجيد ، ولها صولات وجولات ..
وفوق ذلك : فيها من الحسن والبهاء ، ما يجعلك تحبها .. وتدافع
عنها : -

لك فى التاريخ ركن مشرق فوق السماك
لك فى المنظر حسن ظل يفرى بهلاك

فما على أبناء هذا الوطن الا ان يكونوا بمثابة السور الذى
يحميه ، ويرد كيد الاعادى عنه ، وهم جديرون بذلك .. فهم أهل
عزم وثبات :

نحن سور بك دائر وجبال رأسيات
نحن أبناء الجوزائر آل عزم وثبات

هذه مقطوعة من النشيد الذى تنبا بالثورة، وكان ارهاصا لها ..
قبل قيامها بأكثر من ثمانى سنوات ، وهو : ان دل على شيء ، فانما
يدل على أن الايمان بالثورة ، كان هو السبيل الوحيد للتحرر من
الاستعمار الفرنسى البغيض . وان هذه الثورة .. ستبعث من الجبال،
سيثيرها الفلاحون الذين ذاقوا مرارة الاضطهاد ، وعرفوا الاستعمار فى
أبشع صوره .

هذه الجبال التى لم تطأ من رأسها فى يوم ما .. للدخيل ،
ولا خضعت للاجنى المحتل . والذى يعتدى على أبنائها .. فقد
اعتدى عليها ، وأستهان بها ، والويل .. ثم الويل .. للذى لا يحترم
الجبال الشائرة . كما رمز بذلك الشاعر « محمد العيد » فى إحدى قصائده :

نحن الجبال بنو الجبا ل صدى الجبال بنا جدا
من سنامنا ايلاده فطى الجبال قد اعتدى
ومن استهان بنا استهان ن بها فحل به الردى

والشاعر « العيد » يعبر عن تعطش الشعب الجزائري للحسرية ،
وتلهفه الى الانعتاق من ريقبة الاستعمار الاجنبى ، ويسببترشد الحرية
الحمراء ، هذه الحرية التي لا تأتي بغير الدم ، والتي ركب لها الشعب ..
الركب الخشن . هذه الحرية ، التي طالت غيبتها على الشعب
الجزائرى الذى يرنو اليها... فى شوق لاهف ، ويتطلع الى شمسها
المشرقة الوضاعة :

نبتفى العيش فى الجزائر حرا مطلقا لا يحفسه ارهاب
ارشدنا السبيل أينما ذهب سراء انا قوم اليك ركاب

هذه أبيات من قصيدة للشاعر « العيد » بعنوان : (نبتفى العيش
فى الجزائر حرا) وهى قصيدة طويلة ، يحث فيها الشباب الجزائري
على العمل الجدى ، وعلى الاتجاه الى الشرق العربى ، الذى هو موطن
العروبة ، وهو الذى حافظ على العروبة ... فهو المورد البارد السائغ
الشراب :

يا شباب اتجه الى الشرق واحفظ كل كنز له اليه انتساب
انما الشرق نسبة العرب الاح سراء لم تنقطع لها اسباب
انما الشرق للعروبة كهف آمن الظل بالأذى لا يصناب
انما الشرق للعروبة ورد بارد الماء سائغ مستطاب

وللشاعر ارهاصات تبدو فى قصيدته (فى يوم باتنة العظيم)
هذه القصيدة قالها فى افتتاح مدرسة باتنة « عاصمة الاوراس »
والتي مطلعها :

حشنا نحو باتنة المطايا وجئناها نرف لها التحايا
ونهدينا تهاني وطييات تنم عن عواطفنا شدايا
ونذكرها روائع ذكريات كوامن فى جوانحننا خبايا

وهذه المدينة تستحق كل تحية عطرة مفعمة بالحب والصدق .
ليست أخت الأوراس الشامخ . ثم ليست جارة (توقر) الخصيب
الجميل :

ليست أخت أوراس المعلى وجارة توقر الخصيب الحنايا

وان المرء ليعجب حقا ، من تردد الجبال فى شعر شعرائنا . انها
ظاهرة حقا .. تسترعى النظر ، وتدعو الى التعمق والعجب . انهم كثيرا
ما يفتخرون بالجبال .. هذه الجبال التي راوا فيها مهدا للشورة ،
وملاذا للاجرار ... الذين سيحررون وطنهم من العبودية التي طالت
... فسثمها هذا الشعب الذى لا يمكن أن يموت أبدا :-

وكيف يموت شعب عبقرى به الفتيان تنبغ والفتايا

هذا الشعب الذى اذا ما دعا ابن له فى (توقر) اجابه فى « جرجرة »
ابن لا يخلد من دعاه واستنجد به :-

اذا ما دعا فى (توقر) ابن اجابه بجرجرة ابن ليس يخلد من دعا

ثم ان الشاعر يدعو الى الثورة في صراحة .. هذه الثورة التي يقوم بها الحر الجريء الذي يخوض الوغى في كتيبة ، ليحرر بلاده .. أو يموت موتة كريمة : -

والا من اختاض الوغى في كتيبة ليفتح مصرا أو يلقى مصرعاً

وقد استجاب الشعب الجزائري لهذا النداء ، وحقق للشعراء حلمهم الجميل في الثورة على العدو الفاصب . فكانت الانطلاقة الكبرى يوم فاتح نوفمبر العظيم الذي كان فاصلا تاريخيا هاما في حياة الشعب الجزائري من الناحيتين الفكرية والسياسية .

وستحدث عن الشعر الثوري الذي واكب الثورة .. وعبر عن أهدافها ، وسجل انتصاراتها ، فكان بذلك : لسانها الأمين ، وسجلها الوفي ، ومرآتها الصقيلة التي مكست بطولة شعبنا الثائر من أجل الحرية والكرامة الانسانية .

وقبل الانتهاء من هذا الفصل ، لابد من الالمح الى أن الشعر الجزائري في هذه المرحلة قد تطور تطورا محسوسا من الناحيتين : ناحية الصياغة ، وناحية الموضوع .

فمن الناحية التعبيرية ، رأينا من النماذج التي سبقناها « كشواهد للتمثيل لا للحصر » أن الشعراء قد اعتنوا بالفاظهم اعتناء يبدو في بعدهم عن الالفاظ الجوفاء الفارغة المألوفة - فالالفاظ بسيطة منقمة ، والموسيقى تشيع في القصيدة ، والوحدة الموضوعية ... توافرت بشكل ملحوظ ، وقلت الأخطاء اللغوية والعروضية بصورة واضحة .

اما من الناحية الموضوعية ، فقد رأينا : كيف تعددت الاغراض ، واختلفت الموضوعات .. وأخذ الشعراء يبحثون عن مواضع جديدة فبالإضافة الى الموضوعات الوطنية والسياسية والقومية رأينا كيف أن البعض من شعرائنا حاول أن يطرق مواضع أخرى ، مثل الوصف والحديث عن الطبيعة . بل هناك من ناجى الكون في حكمة لا تخلو من طرافة .

وقد شاع في معظم قصائد هذه الفترة الحديث عن : الحرية والاستقلال والعلم ، والنضال ، والدعوة الى العلم والثقافة ، والاتجاه نحو الشرق العربي .. الى غير ذلك من المواضيع والاغراض التي تحدث عنها شعراؤنا ، وسجلوها بصصدق وإخلاص ، فكانوا بذلك : مرآة للشعب الجزائري الذي كان يتحضر لمرحلة أخرى جديدة .. مرحلة الثورة ، والخروج من السلبية الى الإيجابية الفعالة .

وباختصار : فالشعر الجزائري قد قطع في هذه المرحلة شوطا بعيدا نحو النضوج والاكتمال ليكون خميرة طيبة لأدب ثوري جديد .. أدب ما بعد الثورة ، وهو الأدب الذي واكب المعركة ، وعبر عنها أصدق تعبير . وهو ما سنفرد له فصلا خاصا بحول الله .

الفصل الرابع

شعر الثورة

١ - أول نوفمبر :

كانت انطلاقة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، فاصلا تاريخيا بارزا في حياة الجزائر . فقد تغيرت فيها المفاهيم ، وانقلبت الاشياء رأسا على عقب ، وتغيرت فيها حياة الشعب وتفكيره ونظيره الى الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحي الحياة الأخرى ..

لقد بدأ الشعب حياة جديدة كل الجدة منذ الثورة المباركة . بعد أن وجد نفسه ... وقد كانت تتخبط في متاهات من القلق والتذبذب والحيرة القائلة . فالسياسة قد أفلست ، والرعماء المحترفون قد برهنوا على عجز تام لفهم الشعب ومطالبه الجوهرية . فأخذ الشعب يتطلع الى زعامات جديدة ، وقيادات جديدة تنتشله من هوة اليأس التي أوشك أن يتردى فيها بسبب تطاحن (السياسة المحترفين) على الزعامة ، وعلى الكراسي الوثيرة المريحة ، وتركوا الشعب يجتر آلامه في صمت ، وتكاد الفصصة تخنقه وتورده موارد الهلاك واليأس المميت ، ولعل خير قصيدة تعبر عن هذه الفترة ، فترة ما قبل الثورة بقليل ، قصيدة الشاعر « محمد العيد » الذي أفصح عن قلق الشعب وعذابه اذ يقول :

يا فؤادا به احترق	لا فح الهام فاحتسرق
ما عسى ينفع الأسى	أمة شملها افتسرق
من لحيران في الدجى	مسه الضر والأرق
يخطب الليل ساريا	متعبا عنه العرق
كلما شام بارقا	خللة بالني برق
ويحه ضاع كل ما	في الوغى من دم هرق

وهي قصيدة بعنوان (كيف يرجو الهدوء) ... تعبر بصديق عن شعور الشعب قبل الثورة ... بأنه أصبح وحيدا في الميدان ، بعد أن تخلى زعماءه عن أهدافه ومراميه التي ضحى من أجلها طويلا .. في ثورات متتابة ، قل نظيرها بين الثورات وبين الشعوب .

فلما جاءت ثورة نوفمبر .. ارتدى في أحضانها الشعب بكل مألديه ، وكرس لها جهوده ، وبذل دمه وضحاياه من أجلها . فقد وجد فيه متنفسه من الحرمان الذي عاناه من الحكم الأجنبي ، كما وجد فيها الأمل المرتجى في تحقيق أحلامه وأمانيه . ووجد فيها التعبير الحقيقي عن أحساسه ومتطلباته . وبهذا : دخل في مرحلة حاسمة

جديدة .. مرحلة الثورة والانطلاق والتعبير بالقوة والدم عن مطالبه .
وبات « أول نوفمبر » يوما خالدا في تاريخ الجزائر . وباتت « ليلة
نوفمبر » ليلة من أخلد الليالي في نفوس الجزائريين . انها « ليلة القدر
الكبرى » . كما سماها الشاعر « مفدى زكريا » .

وكان من الطبيعي أن يتحدث شعراؤنا عن هذه الليلة ، وينوهوا
بأول نوفمبر رمز الثورة وبداية الانفجار .

وهذه قصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر « مفدى
زكريا » يتحدث فيها عن هذه الليلة الخالدة التي دعاها التاريخ ..
فاستجاب له ، كما استجابت لنداء الشعب . فهي بحق : ليلة القدر
الكبرى ، فقد سطع فيها نجم الحرية ، وانكشف فيها الحجاب ،
وتجلى الليل ضاحك القسومات ، وأشرقت كواكبه مضيئة ملتزمة
كالقنابل التي اندلعت في هذا الليل الجديد . لقد أشعل فتية الجزائر
نار الثورة .. ليحرروا وطنهم كما هزت (جبهة التحرير) الشعب ..
فهب الشعب يجرى الى غاياته البعيدة : -

«نوفمبر» هل وفيت لنا النصابا ؟ فكانت ليلة القدر الجوابا وجل جلالة هتك الحجابا قضاها فيك يلتحف السرابا كواكبه قنابله لهبابا واقوم منطننا واحد نابا تلهب في دجنتها التهايا فهب الشعب ينصب انصابا	صعبا التاريخ ليلىك فاستجابا وهل سمع المجيب نداء شعب تبارك ليلىك الميمون نجوما زكت وثباته عن ألف شهرا تجلى ضاحك القسومات تحكى بناشئة هناك أشد وطنا مضت كالشهب وانجذرت شظايا وهزت « جبهة التحرير » شعبا
---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

وفي هذه الليلة الفريدة ، لعل صوت البارود من « جبل الشلعلع »
فتجاوبت معه جبال « جرجرة » وأطلقت هي الأخرى الجباب ، وشببت
في ذرى (وهران) نار الثورة . فاستجاب لها « برج مدين » هو الآخر .
انه جهاد دوخ الدنيا قاطبة . وزلزل سياسة فرنسا . جهاد شعب
أناب عنه أزيز الرصاص ، ليناقش الغاصب ... الذى ايقظته القنابل
من سباته وعمايته وكشفت عن ناظريه النقاب :

فاطلق فوق جرجرة الجبابا رأها برج « مدين » مسجبابا هنالك في سياستها اضطرابا وأوقع في حكومتها انقلابا يناقض غاصب الشعب الحسابا وأسدل فوق ناظره التهايا	ولعل من شلعلع ذو بيسان وشببت في ذرى (وهران) نار جهاد دوخ الدنيا قاطبة وزلزل من صياصيتها فرنسا وأوقعت الرصاص يشوب عنوا فايقظت القنابل من تعسا
---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

والواقع : انه بقدر ما أشعر بالمتعة الذهنية والعاطفية ... وأنا
أقرأ شعر « مفدى » ... أشعر أيضا بالحرج ، بل بالضيق من مفاجاته .
من هذا الانتقال المفاجيء من موضوع الى آخر ، ومن غرض الى غرض .
فهذا الشاعر لا يهتم بوحدة القصيدة وعضويتها . (ولعل هذه ظاهرة

بارزة في شعرنا الحديث) . ترى الشاعر يتنقل بك من موضوع الى آخر ، في نفس القصيدة الواحدة ، دون تمهيد ، ودون موجب لذلك . . . سوى الاطالة في القصيدة ؛ وسوى ان تكون قصيدته بلغت السبعين أو أكثر في أبياتها . كما فعل ممدى في هذه القصيدة التي تحدث فيها عن هلال نوفمبر . . . شهر الثورة ، ثم انتقل - فجأة - الى الحديث عن الصحراء ، ثم عن أشياء أخرى غير انصحراء ، كالحديث عن السياسة وتضحيات الشعب ، وكان من حقه أن يفرد لكل غرض حديثا خاصا . فالتسلسل المنطقي يقتضى ان يكون الحديث عن اول نوفمبر . . . مربوطا بالحديث عن الثورة . وعن انشعب وأهدافه ، وعن تكتل الشعب ، وعن ماضيه الطويل في النضال . أما الحديث عن انصحراء أو غيرها . . . فله موضوع آخر . ولا يصح - مطلقا - أن يكون نداعى المعانى هو المبرر لهذا الخاط والاضطراب . وبالرغم من كل هذا ، فحديث الشاعر من الصحراء حديث رائع لا يمكن اغفله .

ان تصويره للصحراء ، ووصفه لحياة أهلها ومناظرها . . . شىء معجز حقا ، ويدعو الى الاعجاب والفخر . لقد تحدث الشاعر عن صحرائنا الجميلة ، هذه الصحراء التي تفجر منها الذهب الاسود فاسال لعساك العدو ، هذه الصحراء التي ضحينا بدمائنا من أجلها ، ففتحنا بجهادنا بابا للخلد وطريقا للمجد :

وفجر بشر « مسعود » بلال	فاذن واستمال له الرقابا
وكبر للجهاد بها فقمنا	نضج بالدم الثالى الترابا
شقنا فوقها للمجد طرقا	وفتحنا بها للخلد بابا

ان صحرائنا جميلة ، فيها جنات عدن . فيها الثروة تنساب ايما انسياب ، فيها كنوز عامرة بالخيرات ، فيها الذهب الاسود ؛ وفيها التمر الطيب الجنى ، فيها السحر والشعر ، فيها الادب والعلم والجمال :

وفي صحرائنا جنات عدن	لها تنساب ثروتنا انسيابا
وفي صحرائنا اكبرى كنوز	تضارد عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا تبر وتمير	كلا الذهبين راق بها وطابا
وفي صحرائنا سحر وشعر	كلا الملكين حظ بها الركابا
وفي صحرائنا ادب وعلم	زكى بهما المثقف واستطابا

أما واحات صحرائنا الجميلة ؛ ففيها ظل ظليل ، وماء وثير ، ففي سمائها قمر منير نظارحه الاحاديث العذبة ، وتحت خيامها تختبئ العيون الزاهرة بالثروة التي أسالت لعاب الدنيا :

وفي واحاتنا ظل ظليل	تفور بها نواعرها حبابا
وفوق سمائها قمر منير	نظارحه الاحاديث العذبا
وتحت خيامها انجست عيون	اسالت من فم الدنيا لعابا

هذه الصحراء التي هزت (مريم) يوما تخيلها . . . فاسقطت منها الرطب الزكى ، هذه التخيل التي يرتاح اليها الغنام وهو يرسل انغام

النابى العذبة الساحرة • انه يدلى فى الغدير العذب ساقه • • يداعب مياحه
الحلوة ، ويغترف منها بيديه ليطفىء ظمأه ، قرير العين فى هذه الفلوات
الشاسعة • ولكنه اليوم : أصبح يعاف الناس ، يعاف هذه الذئاب التى
كدرت صفو حياته البريئة • فقد كان لا يعرف - فى هذه الجنة - النفاق
والخداع ولا خيانة الاصدقاء • ولكن : منذ رأى هؤلاء الأغراب • • انقلب
هناؤه الى شقاء ، وباتت حياته كلها عذابا مستمرا :

وهزت مريم العذراء نخبلا	فاسقطت الفلوزج والرطابا
يلغدغ تحتها الغنم نايلا	فيطلق من فم الغنم الربابا
يدلى فى الغدير الحلو ساقا	وبالكفين يغترف الشرابا
قرير العين فى الفلوات أضجى	يعاف الناس مذ ألف الدنابا
فما يدري بجنته نفاقا	ولا كذبا ولا خنان الصحابا

وهناك فوق هذا كله • • هناك الحادى الذى يناغى عيسه وهى
تطا منسابع البترول • ويهمز خيله الاصيلية يناغيها وهو نشوان
ويشدو على خطواتها بصوته الهادى الذى يبعث فيها النشوة ، فتطوى
المراحل الشاسعة ، وتقطع الفلوات والبرايا • • دون كلل أو فتور ،
وتنصت الى أغانيه فى لذة فتنى تعبها وعذابها مثله تماما • انها تسعى
فوق هذه الرمال ، وهى لا تدري أنها تمشى وتحت نعالها استقلال
البلاد ، هذا الاستقلال الذى يلاقى الصعاب فى منظمة الأمم المتحدة •

وفوق منابع البترول حاد	يناغى العيس والخيل العربا
على خطواتها نشوان يشدو	فتطوى فى مراحلها اللبابا
تساجله الاغانى وهى نشوى	فتنسيه وينسيها العذابا
فما تدري المطايا وهى تسعى	ادسين الشعب أم دسن الشعبا ؟
وتحت نعالها استقلال شعب	يلاقى فى المنظمة الصعابا

هذه قصة الصحراء ، وهى قصة شعب كامل كما صورها الشاعر
الكبير ، صورها أجمل تصوير ، وإبان بوضوح تعلق الشعب بكل
شبر من أرض الوطن • • وقد وفق الشاعر - الى أبعد حد - فى تصوير
الصحراء ، وفى وصفها ، ووصف حياة أهلها وأخلاقهم ، وما فيها من
مناظر ساحرة • • • بأسلوب مشرق ساحر ، وفى نغمة هادئة رقيقة
تحبب اليك الصحراء • • • برغم حرها وشمسها المحمقة •

ان « مفدى زكريا » قد بلغ الروعة والاعجاب فى هذه القصيدة ،
بل لم نقرأ لشاعر وصفا للصحراء بمثل هذه النغمة الرقيقة ، والنفس
الحلو الهادى ، والتعبير البسيط الخلاب والانفعال الصادق المخلص ،
والعاطفة الجياشة الصادقة • ولا غرو فى ذلك : فالصحراء الجزائرية • •
مهد السحر والجمال ، ومرتع الشعر والخيال ، ومنبت الأدباء والشعراء ،
ومهد الذكاء والقريحة الوقادة • ثم : انها الآن أكبر قضية ومشكلة
تتصادم حولها الرغبات • • • لما تحمله من كنوز وثروات ضخمة • ويكفى
انها كانت السبب فى نسف المفاوضات الجزائرية الفرنسية فى المرتين
السالفتين •

وكنيت حريا ان استمر في درس هذه القصيدة ونقل باقيها الى القارئ الكريم . . حتى يكون أكثر المأما بالموضوع الذي نحن بصدد دراسته ، ولكن طولها : اذ تبلغ حوالى الثمانين بيتا ، ثم الخوف من الاطالة . كل هذا جعلنى اكتفى بهذه الفقرات التى جئت بها للتمثيل من شعر « مفدى » فى أول نوفمبر . . . شهر الثورة المباركة :

ولايد من جولة أخرى مع شاعر شاب هزته (ثورة نوفمبر) فقال قصيدة - هو الآخر - فى هذا الشهر ، بعنوان : (نوفمبر) : فالشاعر (صالح الخزفي) قد بايع هذا الشهر . . لانه شهر البطولات - والمواقف الحادة ، ففيه بدأ فجر الحرية ، ومنه انقده زناد الثورة . . فتفجر بركانها ، وفيه انطلقت الرصاصة الاولى التى اهتزت لها ارض الجزائر من أقصاها الى أقصاها . . ففي هذا اشهر سبال دم الاحرار يروى ارض الوطن ، وينعش ثراها الذى أجذب ، ان هذا الشهر قد خبأ ليلة معجزة . . . معجزة ظهرت للناس بعد أن ظنوا ان عصر المعجزات قد ولى . . لقد وثب فيه الاحرار ليعلنوها حربا على أعداء الجزائر :

يايئت من بين الشهور (نوفمبر)	ورفعت منه لصوت شعبي منبرا
شهر المواقف والبطولة قف بنا	الى مسمع الدنيا وسجل للورى
فلأنت مطلع فجرنا وزناد بر	كان أثرت كمينه فتفجيرا
دوت بمطلعك الخصب رصاصة	فاهزت (البيضاء) وانتشت الدرا
وانداح فجرك عن نصب من دم ال	احرار فانتعش الجديب وأزهرا
خبات معجزة تمخض ليلك الد	اجى بها والارض فى سنة الكرى
يا وثبة الاحرار منا ، يا (نوفمبر)	لما نزل علما لعائلة السرى

انه شهر الثورة ، شهر تقدر فيه كل الأشياء المهولة ، فقد قدس فيه الشاعر . . . النار التى تلتهم الدجى ، قدس فيه الدمع ، قدس فيه الموت الذى يفتخر به كل من يعلو المقصلة من أجل وطنه وحرية بلاده ، قدس فيه الشيب الذى خضب بالدم ، قدس فيه الطفل الذى يلفظ أنفاسه ، قدس فيه هذه الشاهقات ، هذه الجبال الشامخات ، بما فيها من ثلوج وصخور عاتية :-

قدست فيك النار تلتهم الدجى	فتحيل ظلمته لهيبا احمر - - -
قدست فيك الدمع ، جف بمقلة	اغثت لتكتحل الصباح المسفرا
قدست فيك الموت مفتخرا بمن	يعاو المقاصل كى يتيه ويفخرا
والشيب خضب بالدماء فما احتفى	بالعمر صوح نبتة ام ازهرا
والطفل يلفظ بالطوى أنفاسه	لدياه خيطا بالرصاص وما ددى
قدست فيك الشاهقات ثلوجها	وصخورها وانمت منها المشعرا

وبعد هذا الحديث عن شهوز الثورة والاشادة بفضله ، ينتقل الشاعر الى الحديث عن العالم العربى . . . عن كل بلد من بلدائه . . . من الخليج الى المحيط . . ولكنه انتقال مفاجىء ، مثل الذى رايناه لدى مفدى فى قصيدته السابقة . وكان فى مقدور الشاعر أن يكتفى بالحديث عن نوفمبر ، ثم يعنون النياقي من القصيدة بعنوان آخر « كالوحدة » او

« ثورة القومية العربية » ... مثلا ، فيتجنب بذلك هذا القفز والوثب الذي لا داعي له .

وقد يقال أنه أراد أن يتحدث عن الثورة الشاملة التي تحتاج العالم العربي في هذه الفترة ، وهو ما يجب أن يهتم به شعراؤنا ، لأن قضية العروبة ... قضية واحدة في مغربها أو مشرقها . ولكن هذا ، يصح أن يكون مبرزاً ... لو أن الشاعر قد مهد للانتقال المفاجيء بتمهيد يتماشى مع التسلسل المنطقي للأشياء ، والربط بينها برباط وثيق ، أما أن ينتقل من نوفمبر ، إلى ثورة المغرب العربي ، ثم لليبيا ثم ... إلى آخر ما ذكر ... من حديث عن ثورات العالم العربي ... دون أن يهييء الأذهان إلى ذلك ، فهذا يعد عيباً من الناحية الفنية للشعر ، ويعد عيباً في بناء القصيدة . ولكن مع هذا : نلتمس عذراً للشاعر الذي طغت عليه عاطفته واحساسه بعروبتة ، فضرب بقيود الفن عرض الحائط ويشفع له احساسه الصادق ، وخبائه الجموح ... الذي حن إلى الوحدة الشاملة لوطنه العربي ، كما هزته هذه الثورات التي تجاوزت بها أضواء العالم العربي : في المغرب العربي ، في تونس الخضراء ، في المغرب الأقصى ، في ليبيا الحرة ، في الجبل الأخضر بعمان :-

يا ثورة في (المغرب العربي) وحدت القلوب ووثقت فيه العرى
أمسيت بها (الخضراء) حمراء الروابي كل شبر عباته معسكرا
(والمغرب الأقصى) تطالع زاحفا في ظل رايتها يسير مظفرا
يا وثبة في (ليبيا) أو عاشها (المختار) هلل للجهد وكبرا
يا صيحة في شرقنا العربي تحلو للعائدين وتستفز الاخضرا
يا اخوة الجبل الاشم لكم نداء ددته (الونشريس وجرجرا)
جرحان نحن وانتم في ملتقى الروايات وحدنا الضماد وأصهرا

ثم هناك اخوة لنا ، هناك وطن سليل لا بد من استرجاعه ، هذا الوطن : هو « فلسطين » التي لا بد أن نعود اليها ونطرد منها أبناء صهيون الدخلاء :-

يا اخوة الوطن السليل لنا غد سيلوح ملتهب المطالع احمر
فسدوا ، سيجمعنا (ليافا) عودة النازي ، اذا انبلج الصباح واسفرا
عينك (يا يافا) سيجعل عهد اسرائيل بين جفونها طيفا سري

وهناك ثورة عارمة أخرى ، ثورة عربية في (بور سعيد) التي حطمت أحلام المستعمرين وقضت على آمالهم ، لقد حنت غيها « دار لقمان » إلى أن تستضيف الطامعين مرة أخرى ، تأسر الاحفاد بعد أن أسرت الاجداد :-

يا ثورة بور سعيد تجاوزت أصدا غصبتها تهز الابحرا
يا شهر حنت دار (لقمان) إلى أن تستضيف الطامعين وتأسرا
فأبعث لها « ديجول » يخلف « جده » فنزيلها بالامس طاب له القرى
يا موجة غمرت أعالي النيل ، ثم عمت (أسوانه) و (الأقصر)

ثم يستمر الشاعر في ذكر البلدان العربية ، يذكر ارض الرافدين ،

والأرز ، والحرم الأمين ، وقطر ؛ والبحرين ؛ والكويت . يذكر كل ذلك
في نغمة حلوة ، تثير في النفس حب العروبة ، والتغنى بأمجادها وتاريخها
المشترك ؛ وماضيها المشرق السعيد .

ويعود الى الحديث عن شهر نوفمبر ، وعن ثورة نوفمبر . . . التي
ألهبت أرض افريقيا واشعلت فيها الثورات :

يا شهرنا الدامي ، سمعتك زارة دوت (بافريقيا) فالهبت الشرى
ورأتك عيني في رحاب البياض عاصفة ، تسود من طفى وتجبرا

ثم يعرج الشاعر في قصيدته الى الحديث عن الصحراء ، هذه
الأرض التي سال لعاب فرنسا ودول الاستعمار على ما فيها من كنوز
وخيرات . هذه الصحراء التي أقسم الشاعر بالرمضاء فيها ، وبالرياح
الهوج ، وبالناقة الوجناء . . . التي تخب فيها وأقسم بالحادي ،
وبالفصحى ، وبالخيمة السوداء . . . وبليها الأنيس ، وأقسم بنفطها الذي
عشق سواده . وأقسم بكل هذا . . . بأننا مستعدون لنعيد ذكرى القادسية ،
وسنشنها حربا طاحنة تطيح بأعداء العروبة . . هؤلاء الذين يتاجرون
بالحروب . وقد باع فيها أجدادنا واشتروا ، فهم فرسان حومتها ، ولحن
أبناء هؤلاء الأجداد الذين لا يخشون الحرب ولا يهابون الموت :

يا من على الصحراء سال لعابهم : كم موردا فيها (ا) ساءوا : هل أصدرنا ؟
أقسمت بالرمضاء فيها . . بالرياح الهوج ، تشتعل الجديب المقفرا
بالناقة الوجناء فيها ، لم تزل عربية الخطوات شامخة الذرا
أقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحي نقاها « حراء » وطهرا
بالخيمة السوداء بالليل الأنيس بنارها ما انفك طائي القري
بالنفط في الصحراء عشقت سواده الداجي وعفت به النصار الاصفرا
بالذرة الرعاء ، أقعد راجلا ، اشعاعها المودي وأعمى مبصرا
أقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحي نقاها « حراء » وطهرا
سنعيد ذكرى ((القادسية)) للنهي ، تهوى بكسرى أو تطيح بقيصر
ان كنتم تجار حرب ، ان من أجدادنا من باع فيها واشتري
فرسان حومتها ؟ ساءو صسهواتها كم أسرجت بأبن الوليد وعنترا

وهكذا نرى أسلوبين متميزين في وصف الصحراء ، فكل تناولها
بطريق غير الطريق التي تناولها به الآخر . فقد اختار « مفدى » طريق
الفن . واختار « الخرفي » طريق الثورة . فالأول تحدث عن الصحراء بلغة
الشاعر الفنان . والثاني تحدث عنها بلغة الشاعر الثائر وافرقة بين
الأسلوبين فعند « مفدى » تحس بالعطف ، وبالتعبير الدافئ ، وبالنفمة
المناسبة كمزمار الراعي ، وتشعر بالحب للصحراء من خلال هذه الصور
والألوان التي لون بها الشاعر قصيدته . في حين أنك تشعر بالاعجاب
والفخر بما في الصحراء من أشياء لا توجد في غيرها . وافرقة بين الحب
والاعجاب ، وبين الفن والواقع . فقد اختار « الخرفي » الجزالة ، وفخامة
اللفظ الذي يتناسب مع الثورة ، ويتماشى مع قعقة السلاح ، ورنه
البارود . وله وثبات جريئة مثل قوله :-

ان كنتم تجار حرب ، ان من أجدادنا من باع فيها واشتري

وغيرها من الأبيات التي تبعث في النفس الفخر والاعجاب ، وتجعلك تصفق لروعة البيان فيها . ولم أنقل باقى القصيدة . . لأنها طويلة جدا . والمقام لا يسمح بنقلها كلها .

هذه بعض الملاحظات على هاتين القصيدتين اللتين قيلتا في نوفمبر « شهر الثورة » ولم أعثر لغير هذين الشعاعين من شعرائنا الذين اهتموا بالحديث عن شهر الثورة . وكان الاجدر بشعرائنا : أن يهتموا بذكرى هذا الشهر ، لأنه أول عيد قومي ، وأول يوم انطلق فيه صوت الشعب مدويا ومعلنا ارادته في الحياة الحرة الكريمة ، وأول يوم انطلقت منه ثورتنا الكبرى التي توجت الثورات ، بل أشعلت الثورات في أفريقيا ، ومهدت لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها .

وليس هناك أى مبرر لشعرائنا إطلاقا في سكوتهم وصمتهم هذا ، وكنت أرجو أن أعثر على قصائد أخرى في هذا الموضوع حتى أقارن بينها ، وأوازن ، وأحكم عليها ، ولكن لم أجد شيئا من هذا . وأرجو أن أكون مخطئا في تقديري فأرى ما يحقق رجائي أو يكذب ظني .

٢ - الشعراء والشعب

من الحق أن نعترف أن شعرائنا حاولوا أن يعبروا عن أحداث شعبهم ويسايروا وثباته الجريئة ، ويمشوا معه في حلبة الكفاح فينشدوا له أهاليج النصر الذي حققه بدمه الغالي ، ويتغنوا بأمجاده ، ويخفقوا من آلامه ، ويسجلوا مراحل كفاحه . . وما تعرض له في هذا الكفاح .

بيد أننا نلاحظ أيضا أنهم الى الآن لم يعنوا بالجوانب الهامة لحياة الشعب ، ولم يعتنوا بأشياء هي من صميم الشعب ، فلا يزال شعراؤنا تجلبهم الناحية السياسية أكثر مما تجلبهم النواحي الأخرى ، فليس هناك حديث عن الفلاح الجزائري الذي غذى الثورة بدمه وعرقه .

ولا حديث عن الفدائي الذي ضرب الرقم القياسي في البطولة النادرة التي لم يسبق لشعب من الشعوب أن رأى مثلهما في أى ثورة من الثورات الفدائي الجزائرى الذي يقف في قلب فرنسا نفسها ، وهو يحمل روحه في يده ، ليبرهن على شجاعة شعبه ، وفدائيته ؛ وبطولته النادرة وليس هناك من اهتم بحياة الصانع والتاجر ورجل الشارع الذي بات عصب الثورة وعرقها الحساس . وليس هناك من قال ملحمة في أبطال الجبال الذين ردد العالم صدى بطولاتهم وتضحياتهم الفذة ، ولا اهتموا بالمرأة الجزائرية التي هزت ضمير العالم بشجاعته وتضحياتها التي أصبحت مضرب المثل .

وليس معنى هذا أن شعرائنا لم يتعرضوا لهذه الموضوعات الحساسة ، وإنما لم يوفوها حقها ، ولم يولوها ما تستحقه من عناية واهتمام . فقد نجد مقطوعة أو قصيدة لشاعر قد تعرض فيها لبعض هذه الموضوعات ، ولكن هذا لا يكفي ، أننا نريد من شعرائنا أن يعيشوا ثورتهم من شتى النواحي فيعبروا عن أحلام شعبهم ، وعن مشاعره ، وعن أفكاره ، وعن طموحه ، وعن كل حركة من حركاته ، ويعبروا عن هذه الوحدة الشاملة لجميع طبقاته التي وقفت مع الثورة ، ووهبت كل ما تملكه من أجل

انتصارها ونجاحها ، ولو ذهبنا نعد القصائد التي هي من هذا القبيل ،
لوجدناها تعد على رؤوس الأصابع . وسنتعرض لها في هذه الدراسة
بشيء من الأيجاز .

واعتقد أن أول قصيدة ظهرت للثورة في أول الثورة هي قصيدة
الشاعر « سعد الله » بعنوان « احتراق » .

فقد صدرت هذه القصيدة بتاريخ ١١/٢/١٩٥٥ ، ولم نعثر على
غيرها من شعر الثورة في هذه الفترة التي قطعت فيها « الثورة » مرحلة
هائلة . وقد أهداها إلى « شعراء الأبراج » كما سماهم . وهو يقصد
أولئك الذين لم تحرك نفوسهم هذه الثورة العارمة . ولم يهتموا بما
يجرى في وطنهم .

فالمقطوعة الأولى تأنيب للشعراء ولوم وعتاب لهم على هذا السكوت
الذي لا مبرر له سوى الجبن . ثم يخاطب الشعب بهذه النغمة المؤمنة
بالشعب :

أيا شعب أنت وجودي وحببي وإيماني الفائض المستراق
ولست أؤمل غير انعتاق يعيدك خالدا .. نعيمك يقرى
أحالك ظلما - زمان بغي جحيما يفوح بلحم الرقاق

والواقع أن القصيدة ضعيفة مهلهلة من الناحية الصياغية التعبيرية
ليس فيها تجديد ، ولا فيها موسيقا ، ولا إيقاع شعري جميل ، بل
أن كثيرا من تعابيرها غث فح ، لا حياة فيها ولا ماء مثل - لحم الرقاق -
تجرعه العاديات الزوام .

ولكن قيمتها - في الواقع - ترجع إلى الناحية التاريخية . . أكثر
مما ترجع إلى الناحية الفنية . فسعد الله من أوائل الشعراء الذين أحسوا
بالآلام الشعب وعبروا عن احساسهم . هذه دون تقية أو مواربة .

وهناك شاعر آخر كان له فضل سبق أيضا في مشاركة الشعب
أحزانه وآلامه وتحدث عن مشكلاته وما تعرض له من محن على أيدي الجلادين
الفرنسيين هذا الشاعر ، هو : « أحمد الباتني » فقد نشر قصيدة بعنوان
« مشبوه » بتاريخ ١/٤/١٩٥٤ وقد مر على الثورة بضعة شهور ، وهذه
القصيدة تسجل حادثا هاما بارزا في حياة الشعب الجزائري فقد سنت
فرنسا قانونا جديدا لتبيد به الشعب الجزائري ، قانونا من قوانين
« شريعة الغاب » . تعتمد إليه كلما أرادت أن تثبتم من الشعب ومن أبنائه ،
هو قانون « المشبوه » فعندما تريد أن تلقى القبض على أحد توجه إليه
هذه التهمة « تهمة المشبوه » لتلقى به في السجن أو تقتله . والقصيدة
تسجل مرحلة هامة من مراحل الأحداث التي مر بها شعبنا وتعطينا صورة
صادقة لما كان - وما زال - يتعرض له شعبنا منذ أول الثورة إلى اليوم .

يقول الشاعر :

وامضوا لما في البيت فانتهبوه قالوا خلوه فانه مشبوه
ما ناله بالكسح قد سسلبوه وإذا تابى للردى وهبوه
لن يرحموه فانه مشبوه

ويعرض الشبان في هذه النعمة المتألمة ، يتحدث عن هذا المشبوه الذي قيدوه بالسلاسل ، وساقوه الى حيث يلقى صنوفا من العذاب ، والوانا من التعذيب ، وكيف بكى أبوه وأمه وبنوه .. هؤلاء الضحية الذين لا يعرفون ما معنى المشبوه ! وإذا يساق أبوهم مغلا في السلاسل .. فيلوذون بأهم يسألونها عن كل هذا :

سألوا « بدل اليتيم » : أمه لم ساروا به - يا أم - مشدود الوثاق
قالت - وعين القلب تبكي دما ومخرج الخدين صوحه الفراق
قالت : بنى ... أبوكم مشبوه

ثم يتجه الشاعر يطلب اللطف من الله .. فلماذا هذا الشقاء ؟ .. ولماذا يتعرض شعب لكل هذه الويلات .. وليس فيه مجرم واحد ؟ لماذا تشن فرستة حزبة القذرة على شعب لم يعتد على حقوق أحد ؟ .. ثم يختم القصيدة بهذه الزخرفة الصادقة :

رباه لطفك .. ليس فينا مجرم والقوم شنوها على البراء
حربا عوانا ، نارها تنضم من وقعها انا لفي بأساء
رباه لطفك .. كلنا مشبوه

ومن الانصاف أن نعترف بأن الشاعر قد بلغ الروعة في هذه القصيدة ، ليس فقط لأنه عبر عن احساسه تجاه قضية هامة ، وتجاه شعبه الذي تعرض للارهاب في هذه الفترة ، وإنما لأن القصيدة تزخر بشتى المعاني والتعابير المأونة الأخاذة ، فهذه البساطة في التعبير - قالوا خدوه فانه مشبوه - وهذا السؤال البريء الساذج ..

سألوه بدل اليتيم : أمه لسا ساروا به - يا أم - مشدود الوثاق

وهذا الجواب البسيط الحزين : قالت بنى .. أبوكم مشبوه .
ثم هذا الدعاء الحار الصاعد من الأعماق ، والذي يعبر عن الاحساس بالظلم الصارخ الذي جرت به هذه الحرب على الجزائريين جميعا .. « رباه لطفك .. كلنا مشبوه » .

هذه الحسنود الكثيرة من الصور والتعابير البسيطة ، وهذه النعمة الجياشة المخلصة .. ثم هذا الجو الشبان الذي يلف القصيدة كلها ، كل هذه الألوان والصور ، تجعلك تحس فعلا بأنك تعيش مع هذا الشعب ، وتشعر تألمه ، ومن ثم تجعل القصيدة في القمة من الاداء الفني الممتاز . وكنت أود لو أن الشاعر لم ينقطع عن قول مثل هذه القصيدة التي اعتبرها من درر شعرنا الحديث .. ولكن الشاعر مقل .. لا يقول الشعر الا نادرا ولكنه اذا قال كان شاعرا في قوله وصادقا في احساسه .. وعواطفه .

قلت في اول هذا المقال : أن شعرا أنا لم يهتموا الاهتمام الكافي بالجولسب الاخرى الهامة في حياة الشعب . وقلت : ان البعض فقط .. هم الذين تعرضوا الى هذه النواحي ، ومن هؤلاء الشعراء الذين التفتوا الثقافة سريعة نحو هذه المواضع الحساسة ، من هؤلاء : الشاعر «سعد الله» فقد تحدث في قصيدته (أنشودة المزارع والحقول) تحدث فيتنا عن حياة

الفلاح الجزائري ، وعن كدم وعرقه وحرمانه .. في أرض آبائه وأجداده
هذا الفلاح الذي لا يجد - ان وجد - سوى كسرة خبز ، وفراش من حصير
وكوخا يأوي اليه .. يجتر فيه آلامه وأحزانه وترتع فيه العفونة :

ختام افترش الحصير ؟

واساكن الكوخ الحقيق

واساهر الحرمان والألم المزير

وتلوك جنبى العشـونة

ويحيطنى قبو العفـونة ؟

هذه هي حالة الفلاح الجزائري الذي يعيش حياة رتيبة قاسية ..
حياة كلها حرمان وشقاء ، فأمسه أسود قاتم ، ويومه مضطرب ، أما الغد
لهو مبهم ! وهو دائما في مكانه باق لا يتزحزح .

لا غاية تدنو .. ولا أمل طليق

دنيا من الحرمان والدم والشهيق

فالأمس لوح أسود

واليوم موج يصخب

وغدى طريق مبهم

وانا هنا ..

ايـدا هنا ..

وهذا المقطع يدل على أن الشاعر يجاري به هذه الرومانتيكية في شعره
العربي الحديث الذي يميل إلى اليكاء والإنين ، وإلى الشكاوى .. والتشاؤم
الساحط ..

نجد هذه الفكرة - خصوصا - لدى شعرائنا الشباب الذين أغراهم
هذا الدرب الغامض ، فذهبوا ينوحون وينتجبون ، في حين أن الجدير بهم
هو العكس .. تماما ، ففي حياة شعبنا العربي ما يدفع إلى التفاؤل ، وإلى
الحماس ، لا إلى السخط والتألم والانتحاب .. والأ : فكيف نفسر قول « سعد
الله » في وقت كانت الثورة الجزائرية قد بلغت أوجها . هذه الثورة التي
قامت لتحرر الفلاح من الفقر والجهل والعبودية ..

فاذا كانت حياة الفلاح في الماضي « حياة كلها يؤس والم » فحاضره كله
أمل ، وحستقبله مشرق مضي : « لا شك في ذلك »

ويبدو أن الشاعر قد تفلن إلى هذا في آخر قصيدته إذ يقول :

يا مالكين ..

انا هنا

تحن العبيد ..

شبحا واعصارا مبيد

لاشيء يمنع سيلنا

ان تقععت في القكم

عزماطنا وصراخنا ..

ويستمر الشاعر في هذه النغمة التفاؤلية التي تتماشى وواقع
الجزائر اليوم .. هذه الارض الخصبة التي سيتحرر فيها العبيد ،
ويصبحون سادة في بلادهم البكر الولود :

في ارضنا الملاي بجنات الصيد

سنعيش احرارا وصيد

في ارضنا البكر الولود

ولا شك ان هذه الخاتمة هي التي تتماشى وحياة الفلاح الجزائري بل
الشعب كله ، سنترجع هذه الارض الى أهلها وسيستغلها الفلاح لنفسه ..
ويستمتع بخيراتها هو وأبناؤه من بعده .

والملاحظ أن الشاعر « سعد الله » في هذه القصيدة .. قد سار في
ركب الشعر الحر الذي تخفف من قيود الخليل وأوزانه ، وجاري روح
الشعر الحديث . وشعر « سعد الله » في هذه الفترة .. من هذا القبيل
وله قصيدة أخرى على هذا النمط بعنوان (طريقي) وشعره في هذه
المرحلة أكثر حياة من شعره الذي كان يلتزم فيه بحور الخليل وأوزانه
فالرمز الذي يتخذه في تعابيره يعطى اشعاعا للشعر ، وروحا نابضة
بالحس والحركة في تعابيره .. وهو يعتبر من زواد الشعر الحر في
الجزائر ..

وله قصيدة أخرى بعنوان (المروحة) ولا يسمح المقام بالحديث عن
هذه القصيدة التي لها أهمية كبيرة ، فقد تحدث فيها الشاعر عن حادث
« المروحة » التي زعمت فرنسا أنها السبب في غزو الجزائر ..

وهذا اللون من الالتفات الى تاريخ الجزائر .. قليل في شعرنا ،
يل نادر .. الى حد العدم ، في حين أنه منبع يزخر بمادة دسمة للشعر .
ففي تاريخ الجزائر : من الحوادث والمواقف والبطولات .. ما يصلح أن يكون
مادة خصبة للملاحم شعرية باهرة . ولكن شعراءنا - سامحهم الله - تركوا
هذه الجوانب وأهملوها ، وهي جزء من جيلة الشعب ، بل هي الشعب
نفسه .

اننا نود من شعرائنا أن ينقبوا عن صحائف الماضي .. المشرق منها
والقائم ، والمحزون فيها والمسر ، ومن حق الشاعر أن يقول الشعر في

الموضوع الذي تنفعل له نفسه .. وتتجاوب معه أحاسيسه ومشاعره ، ولكن ليس من حقه أن ينسى أو يغمض عينيه عن أشياء عاشها الشعب ولن تمحي من ذاكرة الزمن .. لأنها تاريخ الإنسان في هذه الأرض منذ عرف الظلم والعدل ، وعرف الحرب والسلام ، وضارع كل القوى ، قوى الظلم والعدوان . وشعبنا عاش تجارب فذة من واجب شعرائنا أن يسجلوها ويعطوها بعضا من اهتمامهم وعنايتهم .. حتى يوفوا حق الشعر والشعب عليهم .

اننا نريد شيئا من التخصص الذي شعرائنا .. وشيئا آخر من الشمول الذي نبتعد به عن هذا التشابه في الموضوع والأغراض التي يدور حولها شعراؤنا ، ويضربون عليها ، في وتيرة واحدة ، ونغمة واحدة .

نريد تنوعا في الأساليب لا نسخا مكررة معادة .. نريد تنوعا في الموضوعات ، تنوعا في القوالب والمصنوع والأخيلة .. ومن ثم جدة في الصياغة والمضمون .. كجدة الثورة الجزائرية الجديدة .

وقبل انتهاء المقال : لا بد من الإشارة إلى بعض القصائد لشعرائنا الشبان الذين المعوا إلى مثل المواضيع التي تحدثنا عليها . فالشاعر « عبد السلام حنين » قد اهتز لبطولة الفدائي (محمد بن الصادق) الذي قتل الحائن (علي شيكال) . اغتاله في قلب فرنسا وهو بجوار رئيس الجمهورية الفرنسية « المسيو كوتي » . لقد اهتز الشاعر لهذا الحادث فقال قصيدة بعنوان (مصرع خائن) ، قصيدة تعتبر من الشعر الثوري الحديث ، الشعر الحر ، وهي مليئة بشحنات وطاقات تعبيرية موجية . يقول الشاعر :

خذها ودمدم من مسدسه رصاص

خذها فقد خان القصاص

الويل لك يا خائن الشعب الجريح

إن استريح .. حتى تهوت

سأقتلك .. باسم الوطن .. باسم الجراح الراحلة .

باسم الجزائر والنضال .. خذها رصاصة ثائر .

وهي قصيدة ، بل ملحمة ، صور فيها هذا الحادث أنجل تصوير ، صور بطولة الفدائي الجزائري الذي أتى بالأعاجيب ، وصور ذعر فرنسا وخوفها من رصاص هؤلاء الفدائيين .

أما الشاعر « محمد صالح باوه » فقد تحدث عن الثائر .. عن هذا الذي أقسم بالرشاش والمدفع .. وأقسم أن يفصل الجرح برثة البارود .. أقسم بهذا في قصيدته (الثائر) التي يقول فيها :

أقسمت أني بقيدي بجروحي سوف لا تمسح من عيني دموعي

أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي

أقسمت أن تغسل الجرح وتغفو شعله تضرم أحقاد الجموع

وهناك قصائد أخرى أهتم فيها الشعراء ببعض هذه الجوانب ، مثل قصائد صالح الخرفي « الصاعدون - عبد بلا أم » وقصيدة الشاعر خمّار « ظلال وأصدقاء » .

ومع هذا : فمثل هذه القصائد - كما أسلفت - تعد على الأصابع .. ونحن في أشد الحاجة إلى مثلها ، لأنها .. هي وحدها .. تبرز حقيقة ثورتنا ، كثورة انسانية تهدف إلى تحرير الانسان في الجزائر .. وفي غير الجزائر .. وتعطي صورة متكاملة شاملة لكل أفراد الشعب وطبقاته .. وتبرز ملامح مجتمعنا الجديد الذي يؤمن بالحق والخير والجمال وبالحرية لكل أبناء البشر دون تمييز للجنس أو الدين أو اللغة . فهل يفعل شعراؤنا ؟

هل يقومون بهذا الواجب ؟

اننا لمنتظرون ..

حديث الذرة .. في الشعر

ليس من شك في أن تفجير « القنبلة الذرية » في صحراء الجزائر .. كان حدثا هاما ، بل كان أبرز حدث شاهده الشعب الجزائري في حياته أثناء هذه الحرب .. فالمجازر التي ترتكبتها فرنسا في الجزائر .. تعتبر - بالقياس إلى هذا الحدث - أشياء بسيطة . فقد أرادت تدمير الجنس البشري في هذه الأرض . اختارت أرض الجزائر الشائرة بالذات لتبذر فيها سم « الذرة » ولتنشر الإشعاع الذي القال .. حتى يبيد الجزائريين بل الأفريقيين . إنها أرادت أن تشوه الأجيال المقبلة بهذا العمل الإجرامي بل الممعن في الإجرام .

وكان من الطبيعي أن يتأثر شعراؤنا بهذا الحدث الكبير في حياة الجزائر . وان يحسوا بمدى خطورته على الانسان في هذه الأرض فتحدث الشاعر « صالح الخرفي » عن هذا الحدث في قصيدة بعنوان « الجنون الذري » وقد اختار أن يكون حديثه على لسان أم تناجي ولدها الذي يمثل الجيل الذي سيخرج إلى الحياة مشوها مريضا . وتدعو ولدها إلى الثورة التي تنسف هؤلاء الذين يعبثون بالقيم الانسانية ، ويحتقرون الانسان الذي ولد على هذه الأرض ليعيش في سلام .

ولدى - ان سطت عليك الرزايا	وأشارت لك السحما بالنساي
وسرى فوقنا غبار مبيد	فترامت صرعى الوف الضحايا
ولدى : فانتفض معي ومع الآلا	ف في ثورة تطير شظايا
تنسف العاشقين بالبشر الآمن	والخائفين روح البرايا

ان هذه الام التي ولدت تحت سماء تغشيه سحب الذرة الفاشمة حق لها أن تبكي ولدها . انها قد افتقدته ، وضاع منها طفلها الصغير فحق لها أن تنوح وتذرف الدمع المر ، انها أم شقية حقا :

ضاع عمري اذ افتقدت عزيزي فيك ، سفر المنى وسحر العيون

واذا رمت أن تبوح بسر خاتك النطق فاحتمى بالسكون
فطويت الأحران في كفن الصمد ت واطرقت مصفيا للشجون
ثم اطلقت للأسى لفحة الدمع واسسامت أمره للجفون

ان هؤلاء الذين قضوا على هذا الطفل أن يعيش في ظلام حالك ،
أو أن يحيا كسيحا مقعدا . ان هؤلاء الذين لم يشفقوا على طفولته البريئة
لن تنام عيونهم ، ولن تبصر النور ، ولن يتذوقوا للراحة طعما .

يا عزيزي لن يبصروا النور والاشع سماع يوما ومقلتاك ظلام
لن يسيروا خطى وانت كسيح تكلت خطوة الأمور الجسام
سهدوا طرفك البريء بأشبا ح الرزايا . انى لهم أن يناموا ؟
ما لهم في الحياة راحة قلب وبهم في الحياة يشقى الانام
ان هؤلاء الذين استغلوا خيرات هذه الأرض .. لن يجدوا سوى
أن يجازوها بهذه القبيلة الماحقة .

غربت شمس عزهم فاستباحوا وطننا شمس عزه لا تغيب
وجزاء الجهود قبيلة التخرب ب من هولها تميد القلوب

لقد فجروا هذه القبيلة في صحراء الجزائر .. بعد أن فشلت قنابلهم
الأخرى في جبالها ، ولكن ذرة الرمل ، مثل صخرة الجبل ، كلتاها سيان
في الدفاع عن هذه الأرض ، فإذا وجد جيش الأعداء في الجبال جليدا
وثلوجا تجمد أطرافهم فسيجدون في الصحراء النار لتلفحهم وتلهب
أجسامهم .. وإذا كانوا قد تاهوا في مجاهل هذه الجبال ، ففي الصحراء
هلاكهم .. وفناؤهم النهائي :

فشلت في الجبال قبيلة البطش فرموا تفجيرها في الصحارى
ذرة الرمل ، صخرة الجبل ، سيان في الوفاء للدمار
ان تكن قسوة الجبال جليدا ان بطش القفار لفحة نار
من يته في مجاهل الاطلس الوعر ، فصيحراؤه بغير قرار

أما الشاعر «مفدى زكريا» فهو الآخر قد اتفعل لهذا الحادث ، وتأثر
بهذه التجربة المدمرة التي فجرتها فرنسا فوق أرضنا .. لتقضى على الجنس
البشرى ، لا في الجزائر فحسب ، ولكن في أفريقية كلها ، وقد تحدث
الشاعر في قصيدته : (ابن القبيلة الذرية) عن هذا الطفل الذى أول
ما تكتحل عيناه ، تكتحل بفبار الذرة السام ، ان هذا الطفل يمثل جيلا
كاملا سيخرج الى الحياة وكله عاهات وأمراض ومركبات انه يولد أعمى
لا يرى الكون الباسم ، ولا يمشى على هذه الأرض الا مقعدا « كسيحا » . انه

يولد أخرس لا يتكلم ولا تفرح أمه - وهي تهدده في المهد - بهذه الكلمة الساحرة : (أماه) . . . انه جيل الموت ، جيل الويل ، الجيل المشلول .

ما دهاه . . ويل أمه . . ما دهاه ؟ ويلتاه من جيله ويلتاه ؟
ماله في الحياة يولد أعمى لم تر الكون باسمها مقلتاه ؟
ماله مقعبدا يخرج رجليه ؟ وماذا جنى فشلت يدها ؟
ماله لم تزل تهدده الأ م ، ولم تستمع لها أذناه ؟
ماله أخرس تنأجيه في المهاد لم تبسم لها شفاه ؟
ولماذا لم يبك بين ذراعيه ها دلالا ، ولم يقل : أماه ؟
الهدا الوجود جاء وحيدا ؟ أم له في زمانه أشباه ؟
ويلتاه من جعله ويلتاه

لقد قذفت به يد الموت الى هذه الحياة ، وصقته فرنسا السم الزعاف قبل ان يخرج الى الوجود ، وعندما خرج . . كان مشوها شكه تشويها مريعا . انه ابن أفريقيا « الشهيد » الذي اتخذت منه فرنسا بتجاربها قربانا فتحطم وهو رضيع ، لقد شوهت خلقته ، وهو بعد : لم يعرف الحياة . ليت له لم ير النور ولا خرج الى هذا العالم الحقير ، ليت بقي في السماء كالشعاع الرفيع المنيع .

قذفته الى الحياة يد الموت ت فلم يقض في الحياة ربيعا
وسقته السموم في عالم الغيب ب فرنسا فجاء شكلا مريعا
ابن أفريقيا الشهيد وقد خر على مذبح الطفاسة صريعا
تخذت منه « للتجارب » قربانا ، فرنسا فحطمته وضيعا
شوهت خلقه جريمتها الكبرى وجرتة للخراب سريعا
ليت له ظل في الفضاء بخارا . ليت دام كالشعاع رفيعا
ليت له ظل في السماء منيعا

لقد غدا هذا الجيل ، كالشبح ، كالخيال ، فليس هو حيا يرجى ؛
أو ميتا يوارى في التراب . . فيستريح . . . انه يعيش في عذاب وبؤس
وسط قوم معذبين ، انه جيل العذاب يسعى الى الموت رويدا رويدا ،
يجتر يأسه في صمت . ان الداء يطحن جسمه ويحيله الى ذرات سامة ،
ولكن ستنبت من حطامه لعنات تطارد فرنسا وتنتقم منها ، وستلطن
فرنسا بالخزي والعار .

شبح كالخيال لم يك كاله سي فيرجى . . ولم يموت فيواري

عاش خيران في عذاب وبؤس بين قوم معذنين حيارى
ظل يسعى الى الفناء ويذا يائسا لا يغالب الاقدارا
طحن الداء جسمه واحال الشيب قاء ذراته هباء فطارا
نبئت من خطاهمه لعنات كالصواريخ نعمة وانفجارا
نازلات على طفلة فرنسا لم تزل كالجحيم تقذف نارا
لقتها عواقب البغي سرا بث فيها عدل السهام قرارا
حملتها العصور خزيا وعارا

ان شعب افريقيا الذى ديسنت كرامته ستنصفه الدنيسا يوما ما ،
وسيحكى الزمان - للأجيال المقبلة - فضائح المدنية الحديثة ، وسينتقم
هذا الشعب لكرامته ، وسيثور . . . ويسحق فرنسا الظلمة ، وسيقول
لفرنسا . انها هفوة ولعنة للبشرية .

شعب افريقيا - ستنصفك الذى يا وتصفى الشعوب الابهية
وسيحكى هذا الزمان ويروى للبرايا فضائح المدنية
فخذ الثار من فرنسا وخلد فى الاصحاح تلك النفوس الزكية
وانفجر صاخا . . . وقل يافرنسا انت فى الارض هفوة اذلية
يافرنسا . . . يا لعنة البشرية

هذه هى رائعة الشاعر « مفدى زكريا » التى صور فيها (تجربة)
من أبرز التجارب التى عاشها شعبنا فى ثورته الجبارة ، انها قصيدة
فريدة فى نوعها ، انها من القلائد القليلة التى تحدثت عن جيل الذرة ،
جيل الدمار جيل الشلل والمركبات ، والشاعر « لا يجارى فى مثل هذه
المواضع أنه يعرف كيف يعبر عن آلام الانسانية فى نغمة حزينة متألمة »

ولقد أعانته على هذا التعبير هذه الحشود المختلفة من الاستفهامات
التى تثير الانتباه وتوقظ الخيال ، ثم هذه الصور المتراكمة التى تتعاقب
فى روعة وبيان ساحر ، ثم هذا الوزن الخفيف الايقاع ، يرق حيناً ، ثم
يقوى ويشدد حيناً آخر ، فكأنه البحر ، يهدأ عندما تداعبه نسمات
خفيفة ، ثم اذا به هائج مضطرب الى ما ثارت فى أحشائه الزوابع
والأعاصير ، فترى أمواجه تصطبغ فى جنون ، وتوشك ان تغرق الأرض
ومن عليها .

والشاعر « مفدى » مولع بالاقتباس الى ابعد حد ، يقتبس من القرآن
والحكم والأمثال . كما فى قصيدته التى تحدث فيها عن زلزال الاصنام
وكما فى قصيدته التى تحدث فيها عن هلال (نوفمبر) وفى هذه القصيدة
وبالرغم من اننى لا أميل كثيراً الى هذا اللون من الادب ، ولكن عند
« مفدى » الذى يستعمله بمقدار . . . أرانى أشعر بأن له مذاقا خاصا

والقلائل هم الذين يعرفون كيف يستعملون هذا اللون من البيان ، بل
البديع . . . كما يسميه علماء البلاغة .

وأراني مضطرا للاعتراف بأن قصيدة مفدى أوقع في النفس وأكثر
تأثيرا وإيحاء من قصيدة الشاعر « صالح الخرفي » فقصيدته « الخرفي » يبدو
أن التجربة فيها لم تنضج فالتعبير كثيرا ما يصاحبه الاضطراب والتكلف ،
وكثيرا ما تغلب عليه النزعة التقريرية . هذه النزعة التي ابتعد عنها
« مفدى » كل الابتعاد ، أو بعض الابتعاد على الأقل . ثم أن الموسيقى التي
تشكل قصيدة « الخرفي » رتيبة ، وتسير على وتيرة واحدة مما يجعلها
باهتة . فليس فيها تموج أو تنوع كالذي نجده عند « مفدى » . ثم ليس
عند « الخرفي » تجريد في الصياغة والتعبير فماذا في هذا المطلع .

ولدى ان سطت عليك الرزايا . وأشارت لك السهام بالمنايا

ان هذا التعبير عادى ، يقوله كل من يريد أن يتأنق في حديثه
وليس هو « بحال » من التعابير الشعرية الموحية .

وانظر الى هذا المطلع الذي يوحى بشيء مهول . . . بشيء تشفق الى
أن تعرفه .

ما ذهاه . . . ويل أمه . . . فادهاه . . . ويلناه من جيلبه ويلتهاه !

ما له في الحيااة يولد أعمى . لم تر الكوان باسمها مقلتهاه ؟

وليس غرضنا هنا أن نوازن بين القصيدتين ، أو نقارن بينهما . .
بيتا بيتا ، أو فقرة فقرة ، فهذا مما لا تحتمله هذه الدراسة لأن ذلك أمر
له مقام آخر وإنما غرضنا أن ننبه الى تفاوت شعرائنا في تناولهم للتجربة
والعمل الفني ، ومضمون القصيدتين واضح « انه حديث عن تفجير القنبلة
الذرية في أرض الجزائر » وماذا سبتترك من أثر على الجيل الحاضر والاجيال
الآتية ، وقد أدى هذا المضمون « مفدى زكريا » في أبيات قليلة منسقة في
حين أن « الخرفي » قد أطيب دون داع للاطناب ، إذ أن قصيدته تبلغ
ضعف قصيدة « مفدى » وليس العيب أن يطيل الشاعر ، ولكن العيب
أن يطيل ثم لا يقول جديدا .

وعلى أية حال ، ففضل الشعارين لا يمكن أن ينكر ، فقد كانا من
أوائل شعرائنا ، بل ربما كانا الوحيدين اللذين أحسا بهول وعظم هذه
الجريمة التي ارتكبتها فرنسا في أرض الوطن وأرادت أن تقضى على
الجنس البشري أرضاء لكبرياء زائف ، وطموح أخرق . . . على حساب
الشعوب المتطلعة الى حياة كريمة وغد أفضل . وستبقى هذه التجربة
سبة في تاريخ فرنسا ، ولعنة تطاردها مدى الزمن . . . كما قال « مفدى
زكريا » .

الحب والثورة

مما يلفت نظر الدارس للشعر الجزائري الحديث . . . خلوه من
الحديث عن الحب والغزل ، فمن النادر جدا أن تجد أكثر من قصيدة
لشاعر جزائري تحدث فيها عن صباياته وأحلام شبابه ، وما أقل من باح :

يجبه أو تغزل بمحبوبته ، وهذا يدعو الى التساؤل الكثير . هل شعراؤنا لا يؤمنون بالحب ؟ وهل هم لم يعشقوا مرة واحدة على الأقل في حياتهم ؟ ثم لماذا نجد الشاعر اذا ما تعرض لهذا الموضوع نراه يهتم ولا يفصح . ويرمز دون أن يصرح ؟

ولست أشك في أن شعراءنا قد مروا بهذه التجربة . . فاحبوا وتغزلوا ، ولست أشك في أن لهم شعرا يعبر عن عواطفهم وحبهم ، ولكن هناك أشياء تمنعهم من ذكر هذا الحب والتغزل بالمحوبة . هناك البيئة الصارمة التي يعيش فيها الشاعر ، هذه البيئة التي تعتبر الحديث عن مثل هذه العاطفة ضربا من الخروج عن التقاليد والعادات التي لها ان مقام الاول في قلوب الناس ، ثم هذه الجدية المتزمته التي عرف بها الشعب الجزائري . . الجدية في كل شيء في حياته الخاصة وفي حياته العامة . . هذه الجدية التي تجعل الطفل الصغير لا يحس بطفولته الساذجة والشباب لا يعرف لشبابه طعما ، وهذه الجدية مرجعها فرط الحساسية الكبيرة المبكرة ، ثم الشعور بهوان منزلة الفرد الجزائري وهو يزرع تحت الحكم الاجنبي . . هذا الحكم الجائر الذي جعله لا يفكر الا في ازالته وتحطيمه . فهو يحس بالكبت والحرمان والنكد فاني له أن يلتفت لعواطفه وصبراته ، وكيف له أن يتغزل أو يعشق ثم يعبر عن هذا الغزل والعشق ، هذا هو سبب هذه الجدية التي عهدت في الشعب الجزائري وهذا هو ايضا سبب سكوت شعرائنا عن الغزل والحب .

ويجب أن نذكر أنه الى عهد قريب جدا كان التفكير في الزواج فقط يعد ضربا من المروق ، وضربا من خيانة الضمير . وقد حرم الكثير من شبابنا الزواج على أنفسهم ما دام وطنهم يزرع تحت حكم الاجنبي ، هذا شيء يعرفه الكثير من شبابنا ويعرفه الكثير منا . ولعل هذين البيتين من الشاعر (اللقاني) يعبران بجلاء عن حقيقة ما ذكرنا ، يقول الشاعر :

الا . . فدع التغزل في غوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه انينا

هذه ليست وجهة نظر الشاعر فقط . بل انها هي الفكرة التي سيطرت على الشعب الجزائري منذ رزح تحت الحكم الاجنبي وذاق منه المرارة التي لم يذقها أي شعب من الشعوب التي ابتليت بالاستعمار الغربي الحديث . ومن ثمة فقد قل الغزل وذكر الحب في شعرنا . وكثر الحديث عن النواحي الاخرى . خاصة : الناحية السياسية والوطنية ، وهذه الاسباب نفسها . . هي التي مالت بشعرنا الى الاكثار من الحديث عن السياسة والحياة الاجتماعية الاخرى .

والذين تحدثوا عن صيabatهم . . كانت تعابيرهم خجلى مرتعشة ، تشي باستحيائهم من الخوض في مثل هذا الموضوع . . ولكن شعراءنا الشباب . . قد خرجوا على هذه القاعدة ، وتحرروا من هذا الحصار الذي ضرب على شعرنا وجعله يعيش في دائرة ضيقة . لقد أعلنوا ثورتهم على

هذا المفهوم الذى لا يقزى الفن . . الفن الذى يابى التقيد ، ولا يعيش الا
فى الهواء الطلق ، والأجواء الرحبة الحرة ، والآفاق المشرقية . . غير
المحدودة ، خرج شعراؤنا الشبان عن هذا الجمود ، وتحذثوا عن الحب
والغرام . وليس هذا وجه الامتياز فى شعرهم ، بل : ان الامتياز . . هو
ربطهم هذه التجربة بتجربة شعبهم ونضاله الجبار من أجل الحرية . ربطوا
الحب بالحرب والثورة ، ربطوا عواطفهم بعواطف شعبهم ، ووفوا لانفسهم
ولشعبهم .

ومن هؤلاء الشعراء « سعد الله » و « صالح الخرفى » . فقد تحدثا
عن الحب دون موارد أو تقية . ويبدو ان « سعد الله » كان أسبق شعرائنا
الشباب الى التغزل وذكر الاثبة . فقد نشر عدة قصائد ، البعض منها
قبل الثورة ، وشعره . . فى هذه الفترة . . كان (غائما) ، أعنى مزيجا من
القديم . . كما فى قصيدته : (الجمال الحالم) و « أطياف » . وهو الى
التقليد أقرب منه الى التجديد ، ويقول فى مطلع القصيدة الاولى :

اضفى الوجود مذاك فى الألوان وجلاك معرض للخلود الهلاني
تجتو الحقائق من سموك ركعا وتفيض فيك جداول الايمان
ويقول فى مطلع الثانية :

ذاك طيف الهوى واحلام انسى ام خيال الجوى واشباح يؤسى
هلى جنّة الحياة وهلى روضة الموت فى سبيل التاسى
فهذه التعابير - تجتو الحقائق ركعا - خيال الجوى - هذه جنّة
الحياة - تعابير يبدو عليها التكلف والاضطراب . ولا تدل على أن الشاعر
قد ملك ناصية القول . وهذه هى البسمة التى تغلب على الشاعر فى أول
حياته من قول الشعر . ولكن « سعد الله » قد تطور فى قصائده الجديدة .
الآخرى التى تبرهن على أنه أخذ يرتقى سلم الشعر الحقيقى ، سواء منها :
ما كان فى الغزل أو فى غيره من الأغراض الأخرى ، وفى قصيدته : (ثار
وحب) التى تحدث فيها على لسان ثائر فى الجبل ، ترك محبوبته ليلتحق
بالجبال ، يكافح مع اخوانه ويجهد أعداء بلاده ، هذا الشاعر الذى لم ينس
حبيبته وحبه . . وهو فى وسط المعركة :

اوراس والسما والعبرق
وصفحة السماء والنسق
والآفاق المحموم راعف حنق
كانه وجوى القلق
قد ظمئت عيونونه الى الفلق
وسال من اطرافه دم الشفق
ونجمه من الشمال تحترق
كقلبنى الذى يسبق
بذكرك العبق
حبيبتي . .

تم يتابع الشاعر ذكر المناظر الأخرى التي يعيش بينها الشبان .
يذكر الأطلس ، وغابة البلوط ، والنهر ، والضفة الخرساء * والصخر
المنتشرة ، ثم ... صوت المحبوبة الذي لم يضع بين هذه الأشياء كلها
وذلك الحب النضر الذي يذكره لحبيبته .

والأطلس الأنوف والبطاح
محيرة الخدود بالجراح
وغابة البلوط كالاشباح
ترقصها عواصف الرياح
ثائرة مهتاجة الدماح
والنهر والفيوم والسممر
والضفة الخرساء والصخر
منتشر .. وزائر القمر
يطل في حذر
من كوة مطموشة البصر
وصبوتك الحلو النغم
في مسمى كرعشة الحلم
كخفقة الصباح المتظنن
وجنبا النضر
حبيبتى ..

ويستمر الشاعر في هذا النغم العذب ، وفي هذا الإيقاع الجميل
يعبر عن الحب والثورة .. هذه الثورة التي زحفت فيها الجموع في عزم
وقوة ، رافعة العلم .. في سموخ إلى الغد الباسم المنشود .

وهذه الجموع الزاحفة
بعزلة كالعاصفة
خفافة اليأسود
إلى الغد المنشود

هذه بعض الفقرات من هذه القصيدة الرائعة التي تبين الفرق بين
«يسعد الله» في أول الطريق ، ثم وهو يرتقي سلم الشعور الحق ، أن هذه
الحشود والصور البيانية الأخاذة من مثل «الأفق المغموم» «الراغف الحلق»
الذي يعبر عن الدم والثورة ، وهذه «البطاح» محمرة الخدود بالجراح ،
وهذه «الغابات» .. ثائرة مهتاجة الكفاح .. كل هذه .. صور جديدة في
شعرنا الحديث أنها بداية طيبة لأديب عربي في الجزائر ، سيتردهر ،
وسيثمر ثمرة طيبة .

وهكذا نرى أن شعراءنا قد ربطوا الحب بالكفاح ، وخرجوا من دائرة
التقليد السخيف إلى مجالات أرحب وأجمل . فلم نعد نسمع البكاء
والنحيب والتأوه المريض الذي «مرض» به شعراؤنا عندما يتحدثون عن
صباياتهم وأحلام صباهم .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر شاب آخر ، هو «صباح الخريف»

قصيدة اعجبت بها جدا . وجدت فيها ما اعتقدته في الشعر الجزائري
من نغمة حلوة شجية ، ونبرة عذبة رقيقة ، وموسيقى تهز النفوس
الشفافة الحساسة قصيدة ربطت فيها الشاعر بين الحب والثورة .
حبوبة تحن الى عش الفرام الذي بات خاويا مرعابعد أن فارقه الحبيب
الى ذرى الجبال . هي قصيدة (نداء الضمير) التي تجعلك تعطف على
هذه الحبيبة التي تحن الى حبيبها ، وقد أرقها هذا الحين ، وأضناها
الشوق الى فارسها الشاعر :

**يا حبيبي . ذكريات الأمل لم تبحر خيالي
كيف تغفو مقلتي عن حبنا عبر الليالي**

وهي تستعطف حبيبها وترجوه ألا يلومها اذا ما فرق الزمن بينهما
فهي لا زالت على الحب والوفاء :

**لا تلمني ، ان ترامت بي أمواج البعاد .
لا تلمني ، لم يزل يخفق للحب فؤادي .**

لهذا القلب الذي يخفق بالحب ، قد اهتز كذلك الى نداءات الأحرار
من أبناء العروبة الذين رفعوا راية النضال :

**غير أن القلب هزته نداءات شجية .
صعدتها في دجى الليل قلوب عريسة .**

ووراء هذه النداءات ، وهذه الاصوات ، رأت أعلام النصر تخفق ،
فوهبت حبها قربانا للجزائر :

**وتراءت لي وراء الصوت أعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر**

فقد كانت الجزائر بالأمس ربعا خصبا لذكريات الحب المعطرة ،
ولكنها اليوم أصبحت مأوى ذئاب جائعة الى الدم ، تكدر صفو الحب والحياة :

**يا حبيبي ربنا بالأمس ربع الذكريات .
انه مأوى ذئاب كسلت صفو الحياة**

هذا الربع الذي كان عشا لتناجي ، وأنسا ونعيما ، أمسى اليوم
نارا وجحيما :

**كان عشنا للتناجي كان أنسا ونعيما
ثم أمسى للرؤى القسيسة نارا وجحيما**

وكم فرش الحبيبان هذا العش بالورود . ونشرا فوقه الزهور .
وكم بنيا لأحلامهما وحبهما من قصور . ولكن الأحلام والأمانى .
بددتها هذه الصرخة المرعبة صرخة : الحرب والدم ، فاستحال الورد :
شوكا ، ودماء ، وضحايا :

يا حبيبي كم فرشينا الربع وردا وزهورا

كم بيننا من هوانا لآمانينا قصورا
فتعالت صرخة الرعب بأشباح المنايا
فاستحال الورد شوكتا ودماء وضحايا

وهي لم تخن حبها لثاثرها المعبود ، بيد أن حبها انقلب الى ثورة بين
الضلوع على هذا العدو الاجنبي ، انها ما زالت تعصب فارسها .. وهويقف
كالنسر فوق الاطلس الشامخ :

يا حبيبي لم اخن عهدى ولا خنت هوايا
فسير أن الحب أمسى ثورة بين الحنايا
لك حبي في ذرى الاطلس في تلك الروابي
فهناك الألق الرحب لأحلام الشباب

انها تحتفظ بحبها حتى تلقى محبوبها .. وقد عم البشر أرض الجزائر
وبدا فجر انتصاراتها .. وقد غمر الكون بتباشيره وأضوائه وعندئذ
ستعانق حبيبيها الثائر ، وبينيان عشما .. في ظل تحرير الجزائر :

لك حبي يوم تغلو بسمة النصر ثرائنا
ويذيب الليل والألام بحر من دمانا
سوف القاك مع النصر وأفراح البشائر
سوف نبني عشنا في ظل تحرير الجزائر

وأنا لا أستطيع أن أخفي اعجابي بهذه القصيدة التي صورت أجمل
تصوير حياة حبيين فرقت بينهما الحرب ، وقضت على أحلامهما التي
عاشا عليها زمنا طويلا . وأنها قصيدة ، بل : قصة انسانية رائعة ،
قصة فتاة وفتى قد نعا بالحب فترة .. ثم اذ بهما يجدان نفسيهما وقد
تفرقا .. تفرقا من أجل هدف سام ، ومن أجل تحرير وطنهما واستقلال
ربع ذكرياتهما الى خراب ، تنعق فيه غريان الشؤم ، وتعبث فيه فسادا ..
ذئاب اجنبية مسعورة .

هذه بعض النماذج التي تصور الحب في الثورة ، او ثورة الحب ..
وهي شيء جديد لم نألفه في شعرنا الجزائري الحديث . ولكنها الثورة التي
غيرت مفاهيم كثيرة ، ومنها مفهوم الحب والغزل ، وحسرت الافكار من
القوالب الجامدة ، سواء في التعبير أو المضمون . ومع هذا فلا زلنا
نحس بأن شعرنا يحتاج الى مثل هذه اللمسات الرقيقة ، والى هذه الحفقات
الحلوة الجذابة ، والى هذه الالتفاتات الانسانية الوديعه ، وعسى أن يتدارك
شعراؤنا هذا النقص ، ولا ينقصهم سوى الاهتمام ، فالمواعب متوافرة ،
والتجربة أمامهم ضخمة تشمل شعبا كاملا يحب ويتألم ، وهم جديرون
بأن يعبروا عن حبه وآلامه ، وعن عواطفه وأحلامه ، وعن آدميته وانسانيته
وهم مسئولون عن ذلك الى حد كبير .

وهكذا رأينا في دراستنا لشعر الثورة - كيف أنه تطور تطورا
محسوسا من ناحية التعبير والمحتوى .. معا . فقد ظهرت فيه قوالب
جديدة ، تنزع الى التحرر في التعبير . والتحرر في الصياغة ، والابتعاد

عن الاساليب الجامدة التي سيطرت على الشعر زمنا طويلا ، أساليب
أشبه بالبحث المحنطة ، والاثواب المرقعة .

اختفت الطنطنة الفارغة ، وظهرت الثورة ... حتى في التعبير نفسه ،
التعبير الذي يهدف الى الاصاله والعمق ، والى الأداء الفني الصحيح ، والذي
يقرب شعرنا من قمة الفن الجميل الذي يسعى الى المتعة العقلية والذهنية
والعاطفية . وقد يكون شعرنا لا زال بعد .. لم يصل الى الذروة الفنية .
ولكنه يسعى جاهدا ليصل اليها مع طول الزمن . ومع طول التجربة
والمران . فقد حطم القوقعة التي كانت تضرب بينه وبين حياة الفن ججابا
صفيقا ، وخرج الى الدنيا الرحبة الواسعة ليأخذ ويتطعم من هذه التجارب
الجديدة التي عرفها غيرنا ، ووصل فيها الى مذاهب جديدة ، وفنون
جديدة ، والوان من الفن الجميل الذي يهدف الى الحق والخير والجمال .

كما انه من ناحيه الموضوع أخذ يبحث عن أشياء جديدة . أخذ يبحث
عنها ليحزب حظه فيها . وبدأت نظراته أكثر شمولا واتساعا عن ذي قبل .
بدأ يربط بين التجربة الذاتية والتجربة الشعبية ثم التجربة الانسانية .
كما تعددت أغراض الشعر ونواحيه . نتيجة للتجربة الثورية الفذة التي
يعيشها ... شعبنا ... منذ سبع سنين .

هذه التجربة شملت كل نواحي المجتمع ، وهزت كيان الشعب من
الاعماق بكل طبقاته وأفراده . فكان من الطبيعي - بل من الاكيد - أن
يلتفت شعر الثورة الى ما في هذه الثورة من عمق ، وشمول ، ومثالية ،
وقيم جديدة . وكان من الضروري ألا يبقى محصورا بين جدران السياسة
فيسير وراءها - يغنى لها وحدها دون أن يلتفت الى المنابع الأخرى التي
يزخر بها شعبنا في هذه المرحلة الحاسمة من حياته وتطوره التاريخي
الهائل . وقد مرت بنا الشواهد على هذا فلا داعي لاعادتها مرة أخرى .

بيد أنه لا يفهم من هذا : ان الشعر الثوري قد بلغ مرحلة النضج
التام والاكتمال الفني الكامل . بل انه لا بد من جهود أخرى تبذل في هذا
السبيل ، حتى تبلغ مستوى ما بلغه الشعر في بعض البلدان العربية التي
سبقتنا في هذا المضمار .

هناك ملامح للشعر الثوري عندنا ... تنقصها الخبرة الفنية ،
والاداء التكنيكي للقصيدة ، وبقدر ماتنقصنا هذه الخبرة ... تزرخر
عندنا التجربة الحية كاملة ، فأغلب شعرائنا عاشوا تجارب شعبهم ولهم
رصيد كبير من هذه التجارب ، فلا ينقصهم سوى التعبير عن هذه
التجارب بأسلوب جديد يتماشى وجدة ثورتنا الخلاقة المبدعة . والشعب
الذي أتى بالأعاجيب في ميادين الكفاح والنضال ... جدير بأن يأتي
بالأعجب في ميادين الفكر والادب والثقافة . وأنا لا أتكهن هنا عندما
أقول : انه في المستقبل القريب سنشاهد أدبا خلاقا ، بآتم معنى الكلمة
عندنا ، سنشاهد أدبا عربيا جديدا في الجزائر ... يسهم في دعم الادب
العربي الثوري الحديث ..

تم بحمد الله

(م ٦ - دراسات في الشعر الجزائري)

هيئة قناة السويس

مركز التدريب المهني

تنفيذا للسياسة الانشائية التي تنتهجها هيئة قناة السويس العربية بمركز التدريب المهني الملحق بورشها العمومية ببورقؤاد حيث يتعلم فيه عدد كبير من أبناء اهالي منطقة القناة حرفا تؤهلهم لخوض معترك الحياة وتفتح امامهم سبل الرزق .

ومدة التدريب بالمركز أربع سنوات .

يتلقى التلاميذ خلال السنتين الاوليين تكوينا أساسيا عاما عمليا ونظريا في ورشة خاصة مزودة بأحدث الآلات ويشرف على تدريبهم نخبة من مهندسي الهيئة ومجموعة من امهر عمال الورش العمومية .

وعند انتهاء سنة التدريب الثانية يوزع التلاميذ على مختلف اقسام الورش ليتخصصوا في المهنة التي برزت مواهبهم فيها .

ويتقاضون عندئذ اجرا شهريا لا يقل عن عشرة جنيهات حسب كفايتهم وترتيبهم في الامتحانات النظرية والعملية التي يؤدونها كما أنهم يمنحون كل سنة اجازة بأجر كامل .

وعملهم بالورش لا يحول دون مواصلة دروسهم النظرية في مركز التدريب فانهم يمارسونها سنتين أخريين .

وبانتهاء سنوات التدريب الرابع يكون التلاميذ على درجة وافية من العلم تؤهلهم لتسلم مهام المهنة التي اختاروها لانفسهم .

ويتخرج في مركز التدريب المهني الحداد والنجار والبراد واللحام والخراط والكهربائي والمصور وعامل الطباعة والتعدين والتليفونات .

دراسات في الشعر الجزائري

فهرس الموضوعات

٣	تقديم
٥	المصادر الهامة
٧	مقدمة

الفصل الأول :

	شعر الانطواء
١١	الانطواء على الذات

الفصل الثاني :

	شعر الدعوة
١٧	دعوة الى النهوض
٢١	دعوة للنضال
٢٤	احداث تاريخية كبرى

الفصل الثالث :

	شعر اليقظة
٣٢	مأساة ٨ مايو
٣٧	مع الشعب
٤٢	في موكب العروبة
٤٩	بين احضان الطبيعة
٥٤	الارهاص الثورى

الفصل الرابع :

	شعر الثورة
٥٨	أول نوفمبر
٦٥	الشغراء والشعب
٧١	حديث الذرة فى الشعر
٧٥	الحب والثورة



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روض الفرج

تليفون } ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبّين - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }